

تأثيرات عربية في روايات إسبانية

دراسات في الأدب المقارن

ترجمها وقدم لها:

عبد اللطيف عبد الحليم

"أبو همام"

الدار المصرية اللبنانية

كلمة المترجم

هذه دراسات نشرها مؤلفها منجمة ، في دوريات ثقافية ، أهمها مجلة الأندلس، الذائعة الصيت ، ولم يجمعها كتاب قبل ذلك ، فرأيت أن ألم شعثها وأن تصدر بالعربية في كتاب .

تعالج هذه الدراسات - فيما تعالج - موضوعا عسيرا ، هو الأدب المقارن ، خاصة ما يتصل منه بتأثير الأدب العربي في الأدب الإسباني ، عبر شعاب يكتنفها كثير من الغموض ، فالحقل بكر ، وطارقوه في حاجة إلى دأب كثير ، وصبر أكثر .

ومسألة التأثير والتأثر هي لب الأدب المقارن لدى المدرسة الفرنسية ، وقد فهمت كثيرا على غير وجهها ؛ لأنها اقترنت أحيانا بالنقل والسرقة وعدم الأصالة على أقل تقدير ، ونحن ننسى أن نقل فكرة إلى أدب آخر يقتضي - عادة - تحويرا للفكرة وإسباغ الناقل عليها شية خاصة ، ربما تخفي معها أعراق الفكرة الأصلية ، ثم ما العيب في تأثر أدب بآخر ، وثقافات الأمم كلها تتأثر كل منها بالأخرى !

إن التأثير العربي في هذه الدراسات واضح لامرية فيه ، وقد دلل الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا على ذلك في حصافة ولوذعية ، وأشار إشارة ذكية إلى دور الموريسكيين في نقل هذه الحكايات والمرددات الشعبية ، التي هي - في رأينا - الغذاء الثقافي اليومي للعرب والإسبان آنذاك ، لكن معظم هذه الأدلة لا تزال فروضا في حاجة إلى

الوقوف على أدلة تاريخية موثقة ، وإن كان عدم الوقوف عليها لا يعني أنها داحضة ؛ لأن النقل والتأثير واضحان بنفسهما ، وما على الأدلة إلا أن تثبت أمرا ثابتا.

لقد لعبت المصنفات الشعبية العربية دورا ملموسا في مصنفات الأدب الشعبي الإسباني ، وينبغي أن تفهم كلمة «الشعبية» هنا على وجهها ، فلا تعني المواويل ، والأغاني الشعبية العامية كما يريد أن يفهمها البعض منا ، بل تعني مصنفات فصيحة يتناقلها «الشعب» ترضي نزعته الفنية والخلقية والشخصية ، التي تروق لها النادرة ، والقصة بمفهومها الساذج ، والمثل المأثور ، وبيت الشعر الرائق ، والحكمة البليغة ، وكتب هذا النوع في العربية كثيرة منها مثلا : فاكهة الخلفاء لابن عربشاه ، وسراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي ، والتبر المسبوك في نصائح الملوك للغزالي ، والمستطرف للإبشيهي ، وحدائق الأزاهر لابن عاصم ، وغيرها كثير ، وهي في حاجة إلى نشرات جديدة أو إلى تحقيق علمي – قمنا ببعضه – ، كما أنها كثيرة أيضًا في اللغة الإسبانية مثل: الأيكة الإسبانية لسانتاكروث ، والأيكة الإسبانية لخوان دي تيمونيدا ، والقونت لوقانور لدون خوان مانويل – ترجمناه وشفعناه بدراسة مقارنة – ومناظرة الحمار لعبد الله الترجمان – نترجمه الآن – إلى غير ذلك .

أدرك جيل سابق لنا قيمة هذه الكتب ، فقرأها بعناية وفهم مدى التواصل الفكري في ثقافة هذه الأمة ، ثم خلف من بعدهم خلف لم يقرأ هذه الآثار ، ولن يقرأها إلا إذا أعيد الخلق من جديد ، وما ذلك على الله عز وجل بعزيز .

ومن فضائل المستشرقين أن فيهم دأبا ، كان لدينا مثله ، وبعضهم أدركته آفتنا الحاضرة ، غير أن الأستاذ جرانخا ظل بنجوة من تلك الآفة ، فهو قارىء يديم النظر في أدب العرب وأدب لغته ، يعينه على ذلك بصيرة نقدية واعية ، ومعرفة بلغات متعددة ، و«ظروف» ثقافية في إسبانيا تدفع إلى البحث والنظر ، كان لدينا مثلها !!

وهو امتداد لمدرسة محترمة في الاستشراق الإسباني ، تولى جل اهتمامها بالأندلس فكرا وتاريخا ولغة وأدبا ، ومن أعلامها : خوليان ريبيرا ، وأنخل جونثالث بالنثيا ، وميجيل أسين بالاثيوس ، وإميليو غرثيه غومث ، وصديقنا فرناندو دي لاجرانخا الشنتمري - نسبة إلى سانتا ماريا ، لقبه الثاني - ولهم دراسات نقدية مقارنة جادة ورائدة ، نذكر منها - مثلا - بحوث ميجيل أسين في تأثير الفلسفة والتصوف الإسلامي في الفلسفة والتصوف المسيحي في إسبانيا ، ومقارنة غرثيه غومث بين الأمثال العربية في حدائق الأزاهر وبين الأمثال الإسبانية لدى الماركيز دي سانتيانا ، وثمة مدرسة أخرى في برشلونة تهتم ببيان الأثر العلمي العربي كالفلك والطب والصيدلة في العلوم الأوربية في العصور الوسطى ، ومن أعلامها خوان بيرنيت ، وخوليو سامسو وأخرون .

لكن الحالة العلمية في إسبانيا الآن تتشابه إلى حد ما مع نظيرتها في مصر ، إلا أنها هنالك أفضل مما هي عليه هنا .

ترجمت هاته الفصول ، ورتبتها تاريخيا ، وتخففت تماما من الهوامش التي شفعها بها المؤلف ، مرتئيا أنها قليلة الجدوى بالنسبة للقارئ العربي ، وإن كانت لا تفوته فائدة ذكر المصادر في المتن ، فكثيرا ما يذكر المؤلف المصدر الذي يستقي منه ، واسم مؤلفه ، وسنة وفاته ، ولم أتدخل معلقا ، مع أن لدى حكايات عربية وشعرا عربيا له علقة بالحكاية الإسبانية ، ولم يقع عليها المؤلف ، مدخرا ذلك لكتاب أقوم بتحريره في المستقبل إن شاء الله ، كما أنني قومت بعض أبيات الشعر العربي الواردة في المتن ، وكانت مختلة الوزن ، إما راجعا إلى مصدرها العربي ، أو آيبا إلى فطرتي العروضية والشعرية .

للأستاذ فرناندو دي لاجرانخا الشنتمري بحوث أخرى منشورة في مجلة الأندلس خاصة ، لم أستطع الوقوف عليها ، وإن كان بعضها لا صلة له بموضوع

الأدب المقارن ، لكن له بحثا عن التأثيرات العربية في لاثاريو دي تورمس نـدعني ، ولعلي أعثر عليه فيما بعد ، فأضمه إلى أخوات له من قبل ومن بعد .

لست أدري هل الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا يسره أن تجمع هذه الدراسات، وتنشر في العربية ، أم أنه – كعهدي به – في تعاليه ، وفي زهده ، وفي عزوفه عـن أي ضوء ، وهو ممرور Amargado دائما من الزيف الساطي ، والركاكة الـشائعة ، شـأنه شأن الصادقين من الفنانين والعلماء ، كان يود أن تجمع أولا بالإسبانية في كتاب؟ أو تظل هاجعة في بطون الدوريات؟ لا أدري .

لكني أعتقد أن ودا غير مزغول بيننا يرقرق في نفسه بعض أنـداء العـزاء ، وأن الكلمة هي الكلمة في كل مكان ، وأن الأدب رحم بـين أهلـه ، «أدب أقمنـاه مقـام الوالد» ، ولعل إنصاف المؤلف للثقافة العربية غير حائد عن المنهج العلمي الـسليم هو «جواز المرور» إلى فكر القارئ العربي وقلبه ، وأنعم بهـذا مـن جـزاء حـين يعـز العزاء ويعز الرجاء .

أبو همّام



أصـــل عربـــي
لحكاية إسبانية مشهورة

Origen Arabe de un
Famoso Cuento Espaanol
Al-Andalus
Vol : XXIV 1956



أصل عربي لحكاية إسبانية مشهورة

إحدى الحكايات الذائعة الصيت في الأدب الإسباني ما يتضمنه الفصل العاشر من كتاب «القونت لوقانور» الذي صنفه دون خوان مانويل ، ويحكي فيه ما حدث لرجل لا يجد ما يتبلغ به – بسبب مسغبته – سوى حبات من الترمس . صادفت هاته الحكاية إقبالا منذ اللحظة التي ضمنها كاتب اسباني آخر هو دون بدرو كالديرون دي لاباركا في المشهد العاشر من الفصل الأول في مسرحيته «الحياة حلم» وهي رواية ذائعة جدا إلى حد أن قليلا من الإسبان المتوسطي الثقافة لا يحفظونها عن ظهر قلب .

لدينا إذن روايتان للحكاية ذاتها ؛ أولاهما ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وثانيتهما تعود إلى القرن السابع عشر ، في مختصرات تاريخ الأدب الإسباني ، وفي الأبحاث التي تدور حول كالديرون ، وفي الطبعات المتعددة لمسرحية «الحياة حلم» حين يتناولون المشهد العاشر المشهور «يحكي أن أحد العلماء ذات يوم ..» والموضوع على لسان «روساوْرا» تعودوا أن يشيروا بطبيعة الحال إلى أن الرواية تعزى إلى الفصل العاشر الذي أومأنا إليه آنفا ، والذي يلقن فيه «باترونيو» القونت لوقانور درسا غير قابل للمحاجّة فيما يبدو ، وفي الوقت نفسه بحثوا عن مصدر محتمل لهذه الحكاية المقتضبة معرّجين على الأدب الكلاسيكي ، والأدب الوسيط لكن دون جدوى . هاته الصفحات تبرهن ، وأعتقد أن ذلك بطريقة بينة – على أن الحكاية ذات أصل أندلسي عربي تئول إلى القرن العاشر .

الفصل العاشر من كتاب القونت لوقانور :

في هذا المثل علينا أن نحدد – في المحل الأول – العنصرين الجوهريين في الحكاية ذاتها .

أ – الفحوى : رجل كان في القديم واسع الثراء ، برّح به الفقر إلى حد أنه لا يجد ما يطعم حاشا صفحة من الترمس Al Tramuces ، يتذكر في عوزه هذا ثرواته البائدة ، فيجهش بالدمع ، يجد سلواه فحسب حين يرى رجلا آخر كان أيضًا واسع الغنى يلتقط قشر الترمس الذي يطرحه فيلتهمه .

ب – المغزى : ليس من اللازم أن نعرض المغزى الذي تتضمنه الحكاية ، فقد كفانا هذه المئونة دون خوان مانويل نفسه كما هي عادته في بقية أمثاله أن يختمها ببيت من الشعر (ترجمناه من بحر الكامل الأحذ المضمر) :

لا تقنطنْ أبدا من الفقر فهناك أسوأ منك في العسر

ذلك المغزى لا يبدو بصورة جلية في شعر كالديرون ، الفحوى فيهما واحدة أساسا ، بيد أن ثمة بعض نقاط من الخلاف سنحللها فيما بعد .

حكاية دون خوان مانويل والنقد .

توجد مصادر هذا المضمون موجزة لدى «شوقان» ، وموسعة إلى حد ما في الحواشي التي صنعها «كنوست» في طبعته لكتاب القونت لوقانور .

المصدر الذي أراد أن يراه أشد قدما مثل عند «تاليس دي ميليتو» مختصر من تأليف «ديوخينس لايرثيو» : «يُسأل تاليس كيف تكون الرزايا أخف وطأة على أحدهم ؟ فيقول إذا رأى شانئيه أشد رزءًا» لقد دار بخلده مثل آخر من الوصايا الكنائسية : لا تنظر إلى من هو أغنى منك ؛ لئلا تحسده ، بل انظر إلى من هو أفقر

منك ، واشكر الله على ذلك ، وبحثوا كذلك في أمثال العصر الوسيط بعضها لكتاب مشهورين مثل القديس توماس الأكويني .

كذلك التمسوا مصدرا شرقيا لدى الشاعر الفارسي السعدي : حكاية الدرويش DERVICHE المترب الذي لا يستطيع شراء حذاء فيسعد بقسمته حين يرى في أحد مساجد الكوفة فقيرا هِمًّا مبتور القدمين .

كما هو بيّن فإن الأساس الوحيد لعلاقة هاتيك المصادر المحتملة بالمضمون الذي عند دون خوان مانويل هو الذي يصلح قاعدة عامة لها كلها : البائس الذي يتسلى حين يصادف من هو أشد منه بؤسا . ومن الممكن كذلك أن يكون المغزى في القونت لوقانور أكثر مماثلة بالمصادر التي التمسوها لو أن المؤلف عمم المسألة متخذا منها قاعدة أشيع بدلا من انحصاره في نطاق الحكاية .

ليس ثمة – في كل حال – حجة تتفق مع الفصل العاشر في كتاب دون خوان مانويل إلا أن تكون بطريقة شديدة الإغماض ، ليس ثمة إلا المغزى بيد أنه لا يتضمن – بصفة دقيقة – فكرة أصيلة : إنه أمر شائع ، قديم قدم الزمن ، ومسألة لا تفتقر إلى مصادر . إذن لا شيء يأذن لنا بالظن أن ثمة علاقة قائمة بين أيّ من الأمثال التي أدلى بها وبين حكايتنا بل إنه لا عُلْقة بين بعضها والبعض الآخر ، كلها تولدت – مستقلة – بصفتها من ثمرات التجارب ، يبدو لي أن القضية من الجلاء لدرجة اعتقادي أنه من غير الحتم الإلحاح عليها ، إلا أنني أستغرب أنهم لم يعثروا على نظائر أخرى في الكتب الشرقية القديمة بما فيها التوراة .

مصدر دون خوان مانويل :

بينما كنت أقرأ لأغراض أخرى كتاب المغرب لابن سعيد ، دهشت لوقوعي على شيء هو بلا ريب أصل ذلك المحتوى الذي عند القونت لوقانور . هو ترجمة

عبد الرحمن القنازعي مدرجة في إحدى مصنفات ابن بشكوال المفقودة ، وأخذها ابن سعيد في كتابه المشهور ، غير أنه قبل دراسة هذا النص نقدم المترجم له ، وهو شخصية باهتة أمام أنظارنا ، إلا أننا نصادف ترجمته مقرَّظا في تراجم أندلسيين كثيرين ، وكذلك في مصنفات المشارقة .

اسمه كاملا عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي القرطبي ذكره المقري عرضا أثناء ترجمته لتلميذه أبي الوليد الكلاعي ، نعرف أن ابن بشكوال ترجم له في إحدى مصنفاته التي ضاعت اليوم ، والتي حفظها لنا ابن سعيد في جزء منها ، خصص له ابن بشكوال في «الصلة» مقالا مطولا ، هو أكثر ما لدينا إطنابا عن عبد الرحمن هذا ، يكنيه بأبي المطرف ، وتثبت هذه الكنية أيضًا في خبر شديد الوجازة يذكره عنه الضبي ، كذلك يظهر في جذوة المقتبس للحميدي ، وفي شذرات الذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي ، وفي كتاب الديباج المذهب لابن فرحون الذي استخدم مصدرا آخر ليس بين أيدينا اليوم .

ربما ولد عبد الرحمن هذا في قرطبة ، حيث كانت تعيش أسرته . يحدد أحد مترجميه تاريخ مولده في سنة 341 هـ / 952 – 953 م درس في قرطبة على مشاهير الشيوخ – كما فصل ابن بشكوال في صلته بدقة – العلوم الأولى : الحديث والقرآن ، ورحل إلى المشرق سنة 367 هـ / 978 – 979 هـ ، فسمع بالقيروان على أبي بكر هبة الله بن محمد بن أبي عقبة التميمي المدونة ، وأجاز عنه وأجاز له ، ومنها رحل إلى مكة للحج ، واستقر مرة أخرى عند عودته بالقيروان فسمع على أبي محمد بن أبي زيد جملة من تواليفه ، وأجاز له سائرها ، وأجاز له أبو بكر الأبهري ولم يلقه . ويتابع صاحب الصلة قائلًا : وقدم قرطبة سنة 371هـ / 981 – 982 م بعلم كثير ، وأقبل على الزهد والانقباض وإقراء القرآن وتعليمه ، ونشر العلم وثبته ، وكان عالمًا عاملًا، وفقيها حافظًا متيقظا دينا ، ورعا فاضلًا ، متعاونا متقشفا متقللا من الدنيا

راضيا منها باليسير ، قليل ذات اليد ، يواسي على ذلك من انتابه من أهل الحاجة ، دءوبًا على العلم كثير الصلاة والصوم ، متهجدًا بالقرآن عالمًا بتفسيره وأحكامه وحلاله وحرامه ، بصيرًا بالحديث حافظًا للرأي ، عارفًا بعقد الشروط وعللها ، وله فيها كتاب مختصر حسن ، وجمع أيضًا في تفسير الموطأ كتابًا حسنًا مفيدًا ضمنه ما نقله يحيى بن يحيى في موطأه ، ويحيى بن بكير أيضًا في موطأه ، واختصر تفسير ابن سلام في القرآن ، وكان له بصر بالإعراب واللغة والآداب ، وكان حسن الأخلاق جميل اللقاء مقبلًا على ما يعنيه ويقربه من خالقه تعالى .

ويستمر ابن بشكوال مفصلًا الحديث بخبر مأخوذ عن الحسن بن محمد يستشف منه تواضع فقيهنا ، يقول :

ولما ولى علي بن حمود الخلافة بقرطبة أشار عليه قاضيه أبو المطرف بن بشر بتقديم القنازعي إلى الشورى ، وقدر أنه لا يجرؤ على رد ابن حمود لهيبته حرصًا منه على نفع المسلمين به ، فعمل ابن حمود برأيه وأنفذ إليه بذلك كتابا من عنده صرف به رسوله على عقبه وانتهره ، ولم يفكر في ابن حمود وسطوته ، وقال له : غر السلطان أعزه الله مني وأعطى العشوة من عملي ، أنا إلى وقتي هذا ما أقوم بمعرفة ما يجب عليّ فضلًا عن أن استفتى في غيري ، وأنشد متمثلًا :

وإن بقومٍ سوّدوك لفاقة ... إلى سيد لو يظفرون بسيد

فأعرض عنه ابن حمود وأوجب عذره .

نزاهة فقيهنا هذا تبدو مؤكدة في خبر رواه أبو عبد الله محمد بن عتاب وهو مروي أيضًا في الصلة ، وأخذه عنه صاحب المغرب .

لكن من الممكن أن نفكر في أن قسوة هذا الأمير ظلت تتحين الفرص لكي يدفع الفقيه الثمن غاليًا لقاء عدم طاعته ، يجعلني أتيقن من هذا جملة ملغزة عند ابن

فرحون ، وهو قد استخدم مصدرًا آخر ، كما قلت آنفا ، ليس موجودًا بين أيدينا اليوم . وفي الأيام التي أظهره فيها البربر بقرطبة مر القنازعي بمحنة همزت حميته وثلمت روحه فسببت له وهمًا ظل يساوره باستمرار ، وإن كان لم يضره .

وعلى كل حال ، فإن صاحبنا قد لقي ربه سنة ثلاث عشرة وأربعمئة ، أي بعد أن اغتيل عليّ بن حمود بأربعة أعوام .

كتب صاحبنا تواليف كثيرة لم يبق منها سوى أسمائها وموضوعاتها ذكرها بعض مترجميه . كان متكلمًا على الموطأ ، مجودًا للقرآن ، مختصرًا لتفسير ابن سلام ، ووثائق ابن الهندي ، وتصنيفًا آخر بعنوان الشروط على مذهب مالك بن أنس .

يتفق كل مترجميه عند الحديث عنه على علمه وشدة ورعه وزهده ، وكان صوام النهار قوام الليل (وهي جملة مطروقة عند الحديث عن الصوفية) راضيًا بالقليل من الحلال . تقول الصلة إنه توفى ليلة الخميس في رجب لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه سنة ثلاث عشرة وأربعمئة (17 من أكتوبر سنة 1022) ودفن عشية يوم الخميس بمقبرة ابن عباس على قرب من يحيى بن يحيى .

رواية القنازعي :

الآن وقد تعرفنا على هذه الشخصية ، فلندعه هو يقص علينا هذا المشهد من حياته هو ، والذي هو الوقت ذاته الأصل اليقيني للفصل العاشر من كتاب دون خوان مانويل ، فأنسخ نص ابن بشكوال الذي حفظه لنا ابن سعيد : قال القنازعي : كنت بمصر وشهدت العيد مع الناس ، فانصرفوا إلى ما أعدوه ، وانصرفت إلى النيل ، وليس معي ما أفطر عليه إلا شيء من بقية ترمس بقى عندي في خرقة ، فنزلت على الشط ، وجعلت آكله ، وأرمي بقشره إلى مكان منخفض تحتي ، وأقول في نفسي : ترى إن كان اليوم في مصر في هذا العيد أسوأ حالا مني؟ فلم يكن إلا ما

رفعت رأسي ، وأبصرت أمامي ، فـإذا برجـل يلقـط قـشر الـترمس الـذي أطرحـه ويأكله ، فعلمت أنه تنبيه من الله عز وجل ، وشكرته .

لقد وضعت خطا تحت الكلمات الرئيسية في النص العـربي ، وضـعت نظـيره في ترجمتي إياه إلى الإسبانية .

لا أعتقد أن ثمة أدنى تردد في اعتبار هذا النص الذي هو من قبيل الترجمة الذاتية أصلا مباشرا تماما للمـضمون الـذي نـصادفه لـدى كـاتبيْن مـشهورين في الأدب الإسباني ، لكن كيف وصل إلى دون خوان مانويل؟

معلوم تماما أن في أمثال القونت لوقانور طائفة ذات أصـل عـربي ، وذات صـلة أيضًا بتاريخ اسبانيا الإسلامية ، ثلاثة أمثال منها تحتوي كـذلك عـلى جمـل عربيـة ، الأمر الذي يخول لنا الظن بأن دون خوان مانويـل حـين سـمعها تحكـي مـن أحـد المسلمين اهتم بتقييد هاتيك الجمل إذ نطقهـا ذاك بالعربيـة أو طلـب منـه صـاحبنا ترجمتها – ترجمة ما يعنيه أن يقيده في تأليفه بوصفه ذخيرة أسلوبية – أو إذا كان ذلك المسلم يتحدث الرومانثية وهو أمر مرجوع ، لكن الأمر الذي يعنينا هو شيء مختلف تماما كما نرى فيما يلي .

رواية دون خوان مانويل :

هل بلغـت مـصنفات ابـن بـشكوال (المتـوفى سـنة ١١٨٢) أو أي مـصنف مـن مصنفات التراجم الأخرى التي من الجائز أن تضم هذه الحكاية انتشارا كافيـا لكـي تبلغ أسماع دون خوان مانويل؟ لا أظن وإن لم تكن ثمة شـواهد مناقـضة – أن دون خوان مانويل كان يعرف العربية الفصحى إلى حد يمكنـه مـن قـراءة هـذه الحكايـة مباشرة . هل ترجمها أحد المترجمين إذن؟

الرواية – بما لها من صبغة تهذيبية – من الممكن أن تكون قد أخذت دون إسناد إلى أحد ، وأولجها بعضهم في مصنفات رقـائق المـواعظ ، أو ببـساطة في تواليـف تزجيـة

الفراغ التي تكثر في الأدب العربي ، ومن الجائز أن مسلما يعرف اللغتين ترجمها لدون خوان مانويل ، أو من الممكن أنها ترجمت إلى اللاتينية أو الرومانثية وضمها أحد الكتب التي عرفها هو ولم تصل إلى أيدينا ، أو ربما قد سمعها في صورتها الشعبية – لكنها دائما قريبة جدا من صورتها الأصلية – من فم شاعر مسلم جوال ، لكن لنعرف الآن كيف استخدمها دون خوان مانويل ، لنبدأ بتذكر المثل العاشر لديه :

«قال باترونيو للسيد القونت لوقانور : لكي تتأسوا حين يصيبكم مثل هذا ، من المناسب أن تقفوا على ما حدث لرجلين كانا سابغي الثراء .»

رجاه القونت أن يقص عليه ما حدث .

استهل باترونيو حديثه قائلا : سيدي القونت ، أحد هذين الرجلين برحت به الفاقة إلى حد أنه لم يبق له شيء يتبلغ به ، بذل أقصى جهده ليجد شيئا فلم يجد إلا صفحة في ترمس ALTRAMUCES ، وحين تذكر ثراءه السابغ ، مفكرا في الجوع الذي يقاسيه الآن ، ولا يصادف إلا حبات الترمس الشديدة المرارة ، ذات المذاق الرديء ، أجهش بالدمع ، وإن كان لم يدع التهام الترمس للجوع الذي يعضه ، ويلقي بالقشر وراءه ، وفيما هو في لجة هذه الكآبة ، وفي هذا التفكير أحس أن شخصا خلفه، فأدار برأسه فإذا برجل يأكل قشر الترمس الذي يطرحه على الأرض، هذا الرجل كما قلت لكم كان في السابق واسع الثراء أيضًا .

وحين رأى صاحب الترمس سأل آكل القشر لماذا يأكله ؟ فأجابه : إني وإن كنت أغنى منك ، فإني انحدرت الآن إلى درك من العسر ، وشدة السغب إلى درجة أنني سعدت سعادة بالغة حين عثرت على القشر الذي طرحته ، عندما سمع صاحب الترمس هذا تعزى ، إذ رأى من هو أشد منه خصاصة ، ورأى أن وشائجه بالفقر أقل ، بهذا التعزي جاهد لينسلخ من فقره ، وظفر بعون الله وعاد مرة أخرى إلى سالف غناه .

إذن يا سيدي القونت لوقانور عليكم أن تعلموا أنه لا أحد في الدنيا يملك كل شيء كما قدر الله ، لكن الله يدلكم على نعمه في كل شيء ، فتحظون بما تريدون ، فإن شحت الدراهم أو ألمت بكم ضائقة فلا تأسوا على ما فاتكم ، بل اعلموا يقينا أن آخرين أغنى منكم ، وفي حالة يسر عظيم قد ألم بهم ما ألم بكم ، ويثلج صدورهم أن لو استطاعوا أن يمنحوا ذويهم ، وإن كان أضأل مما تمنحونه لذويكم .

فسر القونت كثيرا بما قصه عليه باترونيو ، وتعزى وجاهد ، فانسلح مما هو فيه – بعون الله– من العوز الذي طاف به وإذْ رأى دون خوان هذه الحكاية حسنة ضمها إلى كتابه وختمها بهذا البيت من الشعر :

لا تقنطنْ أبدا من الفقر   فهناك أسوأ منك في العسر

منذ البداية يختفي في الرواية كل ما هو شخصي ، اسم البطل ، والوسط الجغرافي، والبيئة الإسلامية ، فتتحول بذلك إلى إحدى القصص التي في الذرع أن تحدث لأيّ كان ، وفي أية حقبة ، وفي أي بلد ، وتحرز الرواية بعدا عالميا لأنها لا تحتوي على عناصر من الممكن أن تكون غريبة على القارئ .

نستغنى عن الإطار الذي وضع القصة فيه دون خوان مانويل ؛ لأنه هو نفسه الموضوع في باقي الأمثال : يطلب القونت لوقانور النصيحة من باترونيو المؤدب ، الصالح ، الحكيم الذي يصوغه له في قالب مثَل يوجزه في النهاية في بيتي شعر .

التباين الأول الذي نلاحظه بالنسبة للبطل لدى باترونيو أنه كان في السالف واسع الثراء ، ثم بدَّد ثروته ، لم يكن من اللازم هاته الزيادة ، لكنها تصلح لتمنح الحكاية بعدا مأساويا عميقا حين تقدم لنا رجلا ليس لديه الآن ما يطعمه سوى حبات ترمس ، يستخدم دون خوان مانويل هذا التناقض بين حالة الثراء الفاحش ، وحالة الفقر المدقع ، ويبدو هذا التباين كذلك في صورة أخرى في الحكاية العربية .

كل من عاش في بلد إسلامي يعرفون جيدا أنه في شهر رمضان ، وفي كل الأعياد كل الناس لديهم دائما أطعمة فاخرة حتى الفقراء البؤساء وإن لم يكن لديهم ما يطعمون في مناسبات أخرى ، فمشهد المسلمين ساعة الإفطار وهم آيبون إلى دورهم حيث تنتظرهم موائد لذيذة هو الذي يعرضه القنازعي – النازح عن دياره – في مقدمة حكايته .

يجد البعض إذن نفسه في الحالة ذاتها ماديا ومعنويا ، ليس لديه ما يهدئ به كلب الجوع حاشا حبات ترمس ، يحملها الفقيه Alfaqui في خرقة ، ويحملها الغني (الفقير الآن) في صفحة ، وقد تمسك دون خوان مانويل بفقرة الترمس التي وردت في الأصل .

ينصرف الفقيه في أسى إلى شط النيل نائيا عن كل بهجة ، وكل مظاهر الفرحة ليأكل الشيء الوحيد الذي بقى عنده ، ويقول في نفسه ترى إن كان اليوم في مصر في هذا العيد أسوأ حالا مني . أما الآخر فتذكر زمنا كان فيه غنيا ، فيجهش بالبكاء لكن دون أن يخطر بباله أن يقارن حالته بحالة غيره .

وكلاهما بينما كانا يأكلان يطرحان قشر الترمس ، أحدهما في مكان منخفض تحته، وثانيهما يرميه خلفه ، ثم يصل رجل أشد منهما تعاسة فيلتقط القشر ويأكله . وتنتهي الحكاية بأن يكتفي الفقيه بهذا المشهد البسيط ليتعظ ، وليحمد الله على حظه.

وفي القونت لوقانور كان البطل الجديد كذلك فقيرا ذا ثراء قد أدبر ، وقد قدّمه لنا باترونيو في مستهل مثَله ، ولم يكن من الحتم أن يكون كذلك ، إذ كان غنيا أكثر من صاحبه الأول ، يحتوي المشهد على درس كافٍ دون حاجة إلى إضافة عناصر أخرى . بيد أن دون خوان مانويل أراغ إثارة الشجن إلى أقصى حد ، واخترع أيضًا في نفسه حوارا بين كلا الرجلين ، يقص الثاني على الأول أنه كان أغنى منه ، وبذلك وحده يتعزى الأول .

يستمر باترونيو في إسداء النصائح إلى القونت ، ليريه عبر كلمات عذبة أن ثمة رجالا كانوا أكثر منه غنى ، وهم الآن أسوأ منه حالا ، وقد نقول إنه كان في ذرع باترونيو أن يرمي بعظته مرامي أكثر بعدا ، لكنه كان ملتزما منذ البداية أن يحدد نفسه فيحل ما اقترحه عليه القونت لوقانور .

الحكاية لدى كالديرون :

دون شواهد بين أيدينا من الطبعي أن النقد قد اعتبر حتى الآن المثل العاشر في القونت لوقانور هو المصدر الذي اقتبس منه كالديرون المشهد العاشر الذي أوجزت فيه القصة إيجازا شديدا :

«يحكـــون أن عالمـــا
كـــان فقـــيرا بائـــسا
يلتقـــط العشـــب ويـأكـــله

قال لنفسه : ترى من الذي يكون أسوأ مني حالا؟

حـــين أدار رأســـه
ألفـــى إجابـــة الـــسؤال
ثمـــة عـــالم فقـــير
يلتقط العشب الذي يطرحه

والآن لو قارنّا أبيات كالديرون بالفقرة الذاتية لدى القنازعي لطفر أمام أعيننا أن الأبيات تشابه كثيرا النص العربي أكثر من تشابهها لمثل دون خوان مانويل . نلاحظ أولا أن البطل ليس الغني الذي افتقر عند دون خوان مانويل ، بل إنه عالم مثلما هو القنازعي . لنقل بصفة عابرة إن حالة هذا العالم الذي «يحكون عنه» والذي لا يجد ما يقيم أوده حاشا عشب الحقول - إلى هذا الأمد في المبالغة — هو شيء يحسب في إبداع كالديرون ، لقد اختفت حبات ترمس القنازعي — والتي كررها

دون خوان مانويل – وهي كلمة طويلة جدا ALTRAMUCES لولوجها بسهولة في هذا الضرب ذي الثمانية المقاطع في الشعر ، وليست على وجه الدقة كلمة شاعرية، بهذا التحوير أفلح الشاعر كذلك في تكثيف الجو الدرامي للقصة ، ونلاحظ ثانيا أن تأملات المكروب – رغم أنها غير موجودة في القونت لوقانور – فإنها لدى كالديرون – لم توجد فحسب بل إنها واضحة في أسلوب مباشر ، وفي جملة يبدو أنها منحولة من النص العربي :

(وأقول في نفسي) ترى إن كان أسوأ حالا مني ؟

Habrá otro (entre si de cia)
Más Pobre y triste que yo?

شيء آخر ، وإن كان غير ذي أهمية كبرى – حدث في الأبيات الآتية : الخط القصصي لدى كالديرون يناصي خط القنازعي ، وينأي عن خط دون خوان مانويل الذي اخترع حوارا ، «ونهاية سعيدة» ، ومغزى ، وتعرى من ذلك كله أبيات كالديرون ، وسوف يسخر مني القاريء من شدة إلحاحي في التحليل الذي في ذرعه أن يصنعه هو .

في إيجاز .. فإن صياغة حكاية كالديرون ، أو بمعنى أدق حكاية الشخصية الواقعية التي ماتت في بدايات القرن الحادي عشر – في كل الأضواء الحقيقية إن لم نتجاوز الحد في عدم الثقة – أقرب إلى الرواية الذاتية العربية منها إلى رواية دون خوان مانويل .

هل في ذرعنا أن نظل نقول حتى الآن – رغم معرفة الحكاية العربية – إن كالديرون استلهم القونت لوقانور ؟ في البداية لابد من قبول أن كالديرون استطاع بسهولة كبيرة أن يقرأ هذا المصنف – نشر سنة 1575 ، قبل ربع قرن من مولد كاتبنا الدرامي الكبير – أكثر من معرفته قبل سبعة قرون . في الوسع أيضًا الاستنتاج أن

كالديرون – حين استهان بعناصر الرواية لدى دون خوان مانويل – وكانت متكلفة غير ضرورية – قد أعاد بناء الخطوط الأساسية في المشهد بحدسه الشاعري الملهم ، بيد أن هذا الاحتمال لا يبلغ إلى إقناعي . ثمة تشابهات تقلق كثيرا بين الحكاية الموجودة في المغرب ، وبين ذلك المشهد العاشر في مسرحية «الحياة حلم»(*).

دون أن ندع التفكير في أن كالديرون قد استطاع أن يقرأ الحكاية في القونت لوقانور ، فإننا نشير إلى أن كاتبنا الدرامي الكبير قد استطاع على الترجيح أن يعرف صياغة أخرى أقرب إلى الحكاية التي أخذها ابن سعيد منها إلى حكاية دون خوان مانويل ، فإن التدقيق في أن البطل عند كالديرون كان عالما هو علامة واضحة على أن لدى مؤلف «الحياة حلم» وعيا تاريخيا دقيقا بالشخصية .

وبالتفكير في وضع كالديرون الكنسي ، فمن يدري أنه لم تصل إليه هذه الحكاية عبر المواعظ الكنسية أو الأدب الديني وفيهما حكاية مؤثرة مثل هذه – وربما انتشرت بواسطة الموريسكيين – قد استطاعت بسهولة أن يجري ذكرها .

كل هذا – إذن – يجعلنا نظن أن حكاية القنازعي قد استطاعت أن تصلح مصدرا عاما لكل من دون خوان مانويل وكالديرون من خلال شعاب ما زالت حتى الآن في طي الفروض .

(*) ترجم صلاح فضل هذه المسرحية .



ثلاث حكايات إسبانية من أصل عربي

Tres Cuentos espanoles de Origen Arabe

Al-Andalus
Vol : XXXIII 1968
Fasc . 1



ثلاث حكايات إسبانية ذوات أصل عربي

حينما كنت أقرأ منذ بضعة أشهر الطبعة الجديدة من كتاب «الملح الإسبانية» التي جمعها باث وميليا ، وضعت إشارة إلى بعضها الذي ذكرني مباشرة بحكايات كنت قد قرأتها في مصنفات عربية لمصنفين مختلفين . قليل من هذه الحكايات كان يسيرا عليّ نوعا ما أن أردها إلى الحكايات العربية المشابهة ، بعضها الآخر كنت قليل الحظ معه ، فلم أعثر على أصولها برغم مراجعتي بعض المصادر التي اعتقدت أنني قرأت فيها هاتيك الحكايا للمرة الأولى .

لم أجزم بأن الحكايا العربية التي ترجمتها للإسبانية فيما بعد هي الأصل المباشر للحكايات الإسبانية ، مدركا الخطورة القصوى في اتخاذ مثل هذه التأكيدات في حقل ضخم وعسير مثل حقل الأدب المقارن دون حيثيات راسخة للحكم أشد من التشابه البعيد ، ومع ذلك فإن الحكايات الثلاث التي عينتها تبدو ترجمة مباشرة لأصولها العربية أو بتعبير أفضل هي نسخة طبق الأصل من الأصول ذاتها ، مع اتخاذ جو جديد لكي تقدم الشخصيات في الحكاية – بأعراف أخرى – الأهمية القصوى إلى قارئ من حقبة أخرى ، بل قبل كل شيء إلى قاريء ذي ثقافة أخرى .

ليس لأية حكاية من الحكايات الإسبانية الثلاث صبغة شعبية ، وليست معروفة جيدا حسبما أعتقد ، وإن كنت قد عثرت بالمصادفة المحضة تقريبا على حكايات أخرى لكتاب قشتاليين ذوي أهمية ضئيلة ؛ لأني لم أشرع في بحث منهجي .

وبالمثل يمكن القول عن الحكايات العربية المشابهة حاشا حكاية واحدة منها كما سأشير إلى ذلك في وقته المناسب ، واضح لكي نجزم بهذا ، لابد من مراجعة عدد كبير من الأعمال الأدبية ، ومراجعة قوائم المرددات الشعبية لكثير من البلدان العربية .

أعتقد أنهم لم يشيروا إلى أصل بعيد أو قريب في الآداب الأوربية لأية حكاية من الحكايات التي أدرسها ؛ فالرواية التي يقدمها كتاب «الملح الإسبانية» تبدو «إسبانية» تماما ؛ بحيث يظهر من الصعب أن يفكر أحد في أصل عربي محتمل لها ، فالطابع كان دقيقا في الحكايا الثلاث .

ثنتان من الحكايات الثلاث للويس دي بنيدو ، في كتابه «كتاب النوادر» ، ولنقل قبل ان نبدأ إن هذا الكاتب قد أبدى اهتماما في إحدى المناسبات بماضي وطنه الإسلامي ، فسمح لنفسه أيضًا أن يستشهد بجملة تعزى إلى أحد ملوك المغرب ، جملة لم أستطع أن أحققها ، ولا المناسبة التي قيلت فيها لكني أظن أن الجملة وصلت إليه من أحد الموريسكيين متوجها بها إلى شخصية عظيمة ، وربما كان لها علاقة بتدمير قصور الحمراء لكي يشيدوا قصر كارلوس الخامس ، تقول الجملة ما يلي: قال ملك فاس : لماذا هدموا بيوت غرناطة ؟ على الأقل ليس في ذرعهم محو ثلاثة أشياء : الثنورة الخضراء ، والشريط الفضي ، والخمار الأبيض وتلك هي البستان ، والنهر الذي يدور ، والجليد في الجبل يبهر البصر ، ويلطف الحرارة » .

التينات الثلاث :

لنبدأ بالترتيب الذي جاءت عليه الحكايات في كتاب «النوادر» تقول الحكاية الأولى ما يلي :

في أحد الأعياد العظيمة جلبوا إلى دييجو دي روخاس ثلاث تينات باكورة من حائط له ، ووضعوها على مائدة ، كانت لديه شهية في التهامها ، لكن حضره البول فدخل المرحاض ، وبينما هو كذلك أكل أحد الغلمان إحداها ، حين خرج دييجو دي روخاس سأل عن من أكلها حين عرف أنه غلامه قال له : قل لي كيف أكلتها ، ألم تخش شيئا ؟ فاقترب الغلام من المائدة وأكل واحدة أخرى ، قائلا له : لقد أكلتها بهذه الطريقة يا سيدي ، فأخذ دييجو دي روخاس الباقية وقال : أقسم لك إذن أنك لن تأكل هذه الثالثة .

يحتوي كتاب حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر(*) للوزير الفقيه الغرناطي المشهور أبي بكر محمد ابن عاصم (1359 – 1426) ، يحتوي على حكاية هي جوهر الحكاية السابقة وإن كانت طريقة المحاجة تختلف ، تقول الحكاية ما يلي :

> وجد رجل في شجرة تين باكورتين في غير إبان الباكور ، فجعلهما في طيفور على رأس غلام ليهديهما للملك ، فأحس الغلام بخفة الطيفور ، فأراد أن يعلم ما فيه ، فرفع الغطاء ، وأدخل يده ، فلم يجد في الطيفور غير الباكورتين، فأخذ واحدة فأكلها ، فلما وضع الطيفور بين يدي الملك بمحضر صاحب الهدية ، أمر أن يرفع الغطاء عن الطيفور ، فلما رفع لم يجد في الطيفور غير باكورة واحدة ، فقال للغلام ما فعلت بالأخرى ، فقال هكذا ، وأخذ الباكورة التي بقيت ورمى بها في فمه وأكلها ، فضحك الملك من فعله .

ثمة رواية وسط في الأدب الإسباني ، وهي أقرب إلى الرواية العربية بالرغم من تفنن مؤلفها في تنميقها ، أعني الرواية التي يضمها كتاب «حياة بدرو سابوتو»

(*) حققنا هذا الكتاب ونشر مرتين أولاهما في بيروت ، والثانية في دار الكتب المصرية مع مقدمة مطولة.

للكاتب الأراغوني براويلو فوث (1791 – 1865) ، هذا الكاتب ومصنفه غير معروفين بما يليق بهما ، برغم أن هذا الكتاب أعيد نشره منذ سنوات قليلة خلت . أقول إن حكاية التينات الثلاث – وهن ثلاث كذلك هنا مثلما هو الحال لدى لويس دي بنيدو ، وليست ثنتين كما هو الأمر لدى ابن عاصم – أقول إن هذه الحكاية تشاكه كثيرا الحكاية العربية التي وصلت إلى فوث الذي يعرف من أية الطرق وصلت ، ومع ذلك فإنه محتمل جدا أن فوث قد عرف «كتاب النوادر» لمصنفه بنيدو الذي استغل موضوعا ما كما سأقول فيما بعد تغطي الحكاية الجديدة التي يلعب فيها دور البطل الحاذق بدرو سابوتو الفصل الثاني عشر من الكتاب تقريبا ، ذلك الفصل الذي يحمل على وجه الدقة عنوان «حول عمولة التينات الثلاث ، تقص الرواية ما يلي :

في باحة تل كورونا مزرعة تين لم تثمر فيها سلف قط ، وفي هذا العام أثمرت ثلاث تينات عجبا ، غضة ، فائقة ، فقرر المجلس أن يبعث بها إلى صاحب الجلالة ، وأن يقوم بعبء حملها بدرو سابوتو ، وأمروا أشهر بائع أسفاط في وشقة أن يصنع سفطا بدعا ، له ثلاثة أقسام لتوضع التينات متفرقات ، فجهز كل شيء ، ووضعت التينات في مهاد وثير ، وأعطي السفط لبدرو سابوتو ، وكذلك نفقات السفر ، وولى وجهه شطر بلاط الملك .

وبعد مسافة وجيزة ، قال في نفسه : إن ما يصنعه أهل بلدي حماقة عظيمة ، ولست أدري كيف أخفي هذا لئلا يبدو . أظن أنني أصل هنالك ، فماذا أقول ؟ ماذا سأقول للحاشية ذات الثعلبية المبتورة؟ ماذا سيقولون حين يروني أحمل من المدور في أراغون ثلاث تينات لصاحب الجلالة وأطلب منهم لقاء الملك لأقدم له الهدية ، وألح في هذا ؟ بالنسبة لي ، ليس صعبا عليّ – حقيقة – أن أذهب إلى البلاط ، وإلا فلست بدرو سابوتو إذا لم ير الملك هذه التينات ويستقبلها . لكن . كيف أفعل أنا

لكي تسفر هذه الجهالة وهذا التصابي عن تقدير وسمعة لدى العشيرة في قريتي ؟ هكذا مضى يفكر في رحلته ، وفي اليوم الرابع وصل إلى قلعة عبد السلام .

قال في نفسه : ها قد اقتربت ، وما كنت أفكر فيه ، فإن ثنتين مثل ثلاث تينات ، فلآكل واحدة ، أكلها ، ومضى ، وصل إلى مكان يدعى محلة الروح القدس ، قال : ما كنت أفكر فيه من قبل ، واحدة مثل ثنتين فلآكل واحدة إذن ، أكلها ، ومضى ، في النهاية وصل إلى الاستراحة الجميلة ، حيث كانت إذاك المقر الملكي ، ومقر الأسرة المالكة كلها ، وكما أن كل شيء كان قد فكر فيه جيدا ، وحلله وقدره ، دخل القصر واثقا تماما من نفسه مطمئنا .

في ذلك الحين كان الذوق المسيطر على القصر حمل الكوفيات ، والنكات اللاذعة، الأمر الذي يجعل خفة الظل وقيمة المحادثة ، وآيين البلاط يكمن في النكتة، والتورية، والآبدة ، والنادرة ربما تكون فاحشة ، محمولا كل هذا محملا حسنا دالا على الفطانة واللقانة . عرف هذا بدرو سابوتو حين مر قبل ذلك على البلاط الملكي ، وبالمناسبة قد خجل إذ رأى قماءة في موضع «الجلالة » والعظمة التي ينبغي أن تناسب إمبراطورية باذخة ، وبلاطا ملكيا مثل إسبانيا سيدة بلاد كثيرة ، لكن بدا له الآن أن هذا نفسه سيسهل مهمته ، وأمل أن يخرج من هذه السبيل موفقا.

وصل بالفعل إلى القصر ، متظاهرا بالعته ، طلب رؤية صاحب الجلالة الذي يحمل له رسالة رسمية من مجلس المدور ، ومعه هدية ستدونها حوليات المملكة باعتبارها شيئا رائعا مما رأته ، سألته الحاشية : أي شيء أحضره ، فأجاب : لابد أن يكون صاحب الجلالة هو أول من يراه قبلهم ، ولن يذوقوه ، ولأنه كان رجلا نافد الصبر ، لم يحتجزوه كثيرا ، وحاول دخول غرفة النوم ، وكان صاحب الجلالة لا يزال في سريره ، ورغم كل شيء ، فإنهم رغبوا في دعابته ، ملحين عليه أن يروا

ماذا أحضر في سفطه ، وفي محاولة دائبة منه ليستمر ظريفا ، قال لهم : انظروا ، بصراحة إذا أزعجتموني سأفر إلى الداخل ، وأشهر سيف صاحب الجلالة ، مقسما لكم به ، وآمركم أن تستأجروا أرواحا ، إذا كان في القصر من يؤجركم . لأنكم ستبقون بلا أرواح ، فقال أحدهم : هل رأيتم مجنونا ظريفا كهذا ؟ احملوه إلى صاحب الجلالة ، بحق القديس خورخي فسوف يروق له هذا جدا ، حملوه بينهم جميعا ، وأدخلوه إلى غرفة صاحب الجلالة .

وصل إلى حضرة الملك ، في إحدى يديه رسالته ، وفي الأخرى السفط ، طلب من صاحب الجلالة إذنا أن يقدم إليه رسالته المكتوبة من مجلس دائرته ، صرح له الملك بكل سرور ، فقرأها ، ثم قال له : إذن أحضرت إليّ ثلاث تينات ؟ فأجابه : نعم يا سيدي ، هي ها هنا في هذا السفط ، دفعه إلى الملك ، قام بفتحه ، فلم ير إلا تينة واحدة فقط . فرد أحدهم على سابوتو : هنا تينة واحدة فقط ، مع أن الرسالة تذكر ثلاث تينات ، فقال الملك : أيها الرجل ، تقول الرسالة إنك أحضرت إلى ثلاث تينات وهناك لا أرى سوى واحدة ، فقال بدرو سابوتو ؛ هو هذا يا سيدي الملك ، كان هنا ثلاث تينات ، غير أني قبل أن أصل إلى هنا قد أكلت اثنتين ، سأله الملك : أنت أكلتها ؟ كيف صنعت هذا ؟ رد عليه بدرو سابوتو : هكذا ، آخذا التينة من يد الملك ، وأكلها بخفة وسرعة ، حين رأى رجال الحاشية هذا الصنيع ، راقت لهم النادرة جدا ، وقالوا : إنهم لم يروا نكتة مثل هذه ، حتى الملك سعد بهذا ، وراقت له النادرة أيضًا ، وخلع على بدرو سابوتو ، هكذا كان ينتظر ، ولم ينخدع لأنه عرف صبوة رجال البلاط وطيشهم منذ السفرة الأولى ، وأمر الملك ألا يخرج من القصر إلا بإذنه ، وأن يحتفي به رجال الحاشية والفرسان ، وأن يخلعوا عليه .

ألمح الناشر صديقي العزيز فرانسسكو يوندراين إلى أن الحكاية ليست أصيلة لدى فوث ، وإن كان الأخير لم يشر إلى المصدر أو المصادر ، والشيء المحير في

القضية هو أن فوث قبل أن يورد الحكاية يزهو بأصالتها ، ويهاجم في إشارة غامضة كاتبا أجنبيا (ربما كان هو المصدر الذي نقل منه) لأن فوث كانت لديه أصول كتاب آخرين ، لقد أخذ من لويس دي بينيدو ، ليس فقط في كتابه حياة بدرو سابوتو ، وفي طوايا الذنب تكمن التوبة ، وإن كان لم يشر إلى هذا مطلقا ، وعليه فإن كتاب فوث غدا مصدر استلهام لكاتب إسباني آخر هو الأرغوني : رامون خ ، سندر .

وبصدد حكاية التينات عثرت في الأيكة الإسبانية لملتشور دي سانتاكروث المؤلفة في الثلث الأخير من القرن السادس عشر على حكاية في الفصل السادس من الجزء الثاني ، في فصل يحمل عنوانا جانبيا هو «عن الصبيان» أنقلها فيما يلي :

أرسل دوق انفنتاثجو إلى قونت سالدانيا ديكا روميا بين طبقين رائعين من زجاج فينسيا ، يقدران بثمن باهظ ، حين كشف الصبي عن الديك أمام القونت ، كسر طبقا ، فأرسل القونت كبير طهاته إلى الدوق يلتمس منه ألا يغضب إذ انكسر الطبق بسببه ، حين عرف الدوق هذا ، سأل الصبي محنقا : كيف كسرته ؟ فأجابه وهو يرمي بالطبق الآخر إلى الأرض قائلا له : هكذا كسرته .

الأمر – كما نرى – صورة أخرى للحكاية ذاتها ، وليست الحكاية وحدها التي لها صلة ، والتي نعثر عليها في مصنفات الحكايات الإسبانية ، ما زال في الذرع الإشارة إلى صدى بعيد في الطبعة الأولى ، موجود في حديث المائدة ودليل المسافرين ، لخوان دي تيمونيدا ، اختفت في الحكاية ليست التينات فقط موضوع الهدية ، بل اختفت فكرة الهدية ، غير أن البطل يظل هو الغلام ، وفحوى الحكاية والحل يظلان كما هما .

يتحدث بلتران – يتحدث لسوء بخته – لماذا يقال ؟ كان صبي يحمل قنينتين من النبيذ في الشارع ، ولكي يتحاشى الصدام بحيوان ، صدم قنينة بأخرى ، ودخل بيته

باكيا ، سأله سيده – كما يحكي بلتران – لماذا يبكي ، أجابه الصبي : لقد كسرت القنينة يا سيدي ، فسأله سيده : كيف ؟ فما كان من الصبي إلا أن كسر السليمة بالمحطمة التي أحضرها ، فهشمها قطعا متناثرة ، قائلا : بهذه الصورة كسرتها يا سيدي ، فأجابه سيده متصبرا : تحدث بلتران تحدث لسوء بخته .

المثل الذي يختم هذه الحكاية ، والذي يبدو بمثابة الشاهد ، يبدو كذلك لدى جونثالو دي كورياس في كتابه المعروف مجمع الأمثال والأوابد .

الخطيب الذي يرتج عليه :

الحكاية الثانية أيضًا نجدها لدى بينيدو ، وهذا نصها :

وصل طالب من شلمنقة إلى قرية جبلية ، وهو ابن أرملة – لا تُعرف له مهنة ، أو علم حصله . في بعض الأيام ألح عليه الناس كثيرا أن يعظ أهله ، لم يجد مناصا من القبول أمام إلحافهم ، فاجتهد في مذاكرة الخطبة ما استطاع ، وصعد المنبر ، ولم يكن له عهد بالمنابر ، لذلك أرتج عليه تماما ، ولم يجد ما يقول ، وبعد وقت طويل من الحيرة والضياع ، قال : أيها السادة : أنتم تدرون ما أريد أن أقوله لكم ، فقال أحد الحضور : سيدي ، بعضنا يدري والبعض الآخر لا يدري ، فرد عليه الطالب : فليخبر الذي يدري الذي لا يدري ، وهكذا تدرون جميعا ما أريد قوله .. .. ثم نزل.

أنقل الآن الحكاية نفسها من حدائق الأزاهر لابن عاصم :

صعد أبو العنبس منبرا من منابر الطائف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ، قالوا : لا . قال : فما ينفعكم أن أقول لكم ما لا تدرون ، ونزل . فلما كان الجمعة الثانية صعد المنبر فقال: أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أقول لكم ، قالوا : نعم . قال : فما

حاجتكم إلى أن أقول لكم ما قد علمتم ، ثم نزل . فلما كان في الجمعة الثالثة صعد المنبر فقال : أما بعد ثم أرتج عليه . فقال : أتدرون ما أقول لكم ، فقالوا : بعضنا يدري وبعضنا لا يدري ، فقال : فليخبر الذي يدري للذي لا يدري ثم نزل .

بطل حكاية ابن عاصم شخصية مشرقية ، يتكرر ذكره في كتب الأدب العربي إلى حد بعيد ، اسمه كاملا كما ورد في معجم الأدباء لياقوت الذي استقى أخباره من الخطيب البغدادي هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أبي العنبس بن المغيرة ابن ماهان ، ويذكر عادة بكنيته أبي العنبس ، كان شاعرا ، تروى له الأبيات ، ومع شعره ونثره ، كان يعرف بذكائه وسلاطة لسانه ، متحفزا دائما لهجاء الشعراء أو لهجائهم له في بلاط المتوكل ، كان قاضي الصيمرة بعض الوقت ، حتى نسب إليها فيقال الصيمري ، كتب حوالي ثلاثين مؤلفا ، قائمة يذكرها ياقوت ، أغلبها من أدب المناسبات الشديدة القذاعة ، وبعضها في الفلك الذي كان يتعاطاه ، ومات في سنة 275 / 888 / 89 .

تحول أبو العنبس في حكاية لويس دي بينيدو إلى طالب يتلقى العلم في شلمنقة ، وحين وصل إلى قريته يلح عليه أهله أن يعظهم ، وتحول منبر المسجد إلى منبر في الكنيسة ، والأحداث الثلاثة لدى ابن عاصم والتي أحدثت نموا للحدث الأصلي اختصرها بينيدو إلى حدث واحد هو الحدث الثالث ، وفضلا عن ذلك فإن الحدث هو نفسه ، وهنا أيضًا أرتج على الخطيب مع أنه أعد خطبته ، ويخطر له نفس المخرج الذي خطر لأبي العنبس ، إلى جانب أن الجملة الاستفهامية لدى أبي العنبس جملة إخبارية في الحكاية الإسبانية ، وفضلا عن الاصطلاح اللاتيني الذي أراد به بينيدو أن يعطي لحكايته به نكهة خاصة إلا أن حكايته صورة طبق الأصل من الحكاية

العربية إلى درجة أن الجمل الحوارية يمكن أن تكون ترجمة مباشرة من نظيرتها العربية :

Vosotros (sénores) sabéis lo que
Quiero decir

أتدرون ما أريد أن أقول لكم .

(senor) dellos lo saben ydellos no.

بعضنا يدري وبعضنا لا يدري

Pues los que lo saben diganlo a los
Que no lo saben .. y bajóse.

فليخبر الذي يدري للذي لا يدري . ثم نزل .

لا أعرف رواية إسبانية أخرى لهذه الحكاية ، لكنها في العربية ذات شيوع كثير، فقد عثرت على صورة دقيقة – مع تغيير طفيف – لدى كاتب أندلسي آخر قبل ابن عاصم بكثير ، ومن الممكن أن يكون المتأخر قد نقل عن المتقدم ، وأعني به ابن عبد ربه الكاتب المعروف ، صاحب العقد ، أو العقد الفريد ، وهي تسمية غير دقيقة برغم أنه اشتهر بها – الحكاية منسوبة إلى أبي العنبس في الجزء الرابع من الطبعة الدقيقة والأخيرة الصادرة في القاهرة ، ومعها حكايات أخرى متعددة لخطباء مفوهين إلى حد ما ، بعضهم ذائع الصيت ، وقد ارتج عليه حين شرع في الخطبة ، وخرج من الصمت بما فتح الله به عليه ، ونرى أن الموضوع يشكل منذ القدم فصلا ضروريا ؛ إذ أنني وقعت عليه أيضًا في مؤلفات مشرقية أخرى ، وكذلك في مؤلفات أندلسية ، وأيضًا باعتباره موضوعا شائعا في مصنفات الحكايات والنوادر الإسبانية . مات ابن عبد ربه شاعر الخليفة القرطبي الأول في سنة 328 / 940 .

الحكاية معروفة كذلك في الأندلس إذ أن العقد كان ذائعا جدا ، في النصف الأول من القرن العاشر .

عثرت على الحكاية – كما هو المتوقع – في نوادر جحا الكبرى التي ترجمها من التركية إلى العربية حكمت شريف ، وهي الحكاية الأولى على وجه التحديد في هذا الكتاب ، وتقول ما يلي :

جلس الشيخ نصر الدين افندي يوما على منصة الوعظ في أحد جوامع آقشهر ، وقال : أيها المؤمنون : هل تعلمون ما سأقوله لكم ، فأجاب السامعون : كلا . لا نعلم . قال : إذا كنتم لا تعلمون فما الفائدة من التكلم ، ثم نزل . وعاد في يوم آخر فألقى عليهم نفس السؤال ، فأجابوه هذه المرة : أجل إنا نعلم ، فقال : مادمتم تعلمون ما سأقوله ، فما الفائدة من الكلام ؟ فحار الحاضرون في أمرهم ، واتفقوا فيما بينهم على أن تكون الإجابة في المرة القادمة متناقضة ، قسم يجيب لا .. وقسم يجيب نعم . ولما أتاهم المرة الثالثة وألقى عليهم سؤاله الأول ، اختلفت أصواتهم بين لا ، ونعم . فقال : حسن جدا ، من يعلم يعلم من لا يعلم .

حين نسبت تلك الحكاية إلى جحا – وهو الشخصية الأكثر شعبية في العالم العربي – ويعلم الله متى نسبت إليه ، وقد شاعت كما شاع غيرها في كل زوايا العالم ، لا يعنيني أن أقتفي آثارها في مصنفات الحكايات الشعبية ، ويكفيني أن أشير إلى أنها حتى الآن حية في شمال أفريقيا ، إلا أنني أريد أن أستند إلى إحدى هذه الحكايات الشعبية التي لها صلة بالحكاية الإسبانية من القرن السادس عشر .

نشر رينيه باسيه في كتابه ألف حكاية وحكاية منذ نصف قرن تقريبا رواية لحكاية جحا – وهي هي في جوهرها الحكاية التي نتحدث عنها ، وإن كانت مطورة بعض الشيء – وتتضمن نقطة التقاء مع حكاية بينيدو . النص كاملا تحت عنوان : (الخطيب الذي أرتج عليه) :

كان جحا ذات مساء في المسجد مع عدة أشخاص ، فقال له أحدهم : ينبغي أن تعظنا هذه الليلة ، فأجاب اعذروني أيها الإخوان ، فليس لدي ما أقوله لكم ، استحلفكم بالله أن تدعوني وشأني ، لكنهم قالوا له : لا محيص عن ذلك ، وحين رآهم ملحفين صعد المنبر ، وشرع قائلا : أيها الناس هل تعرفون ما سأقول لكم هذه الليلة ؟ فأجابوه : لا نعرف شيئا على الإطلاق فقال : عليّ إذن أن أتحدث إلى قوم جهلاء ، لا يعرفون شيئا ، اذهبوا إذن ، فتعلموا ثم أعود إليكم لأعظكم . ثم نزل من على المنبر وانصرف . فبهت الحضور مما قال ، وبعد قليل قالوا لأنفسهم : إذا سألنا في المرة القادمة . فعلى بعضنا أن يقول نعم نعرف ، وعلى البعض الآخر أن يقول : لا . لا نعرف .

وفي اليوم ذاته اجتمعوا ساعة الصلاة ، وعندما دخل جحا قالوا له : عليك أن تعظنا هذه الليلة . فسكت ، ثم صعد المنبر وبدأ قائلا : أيها الناس ، أيها المؤمنون ، هل تعرفون ما سأقوله لكم ؟ فأجابوه كما اتفقوا ، بعضهم : نعم ، وبعضهم : لا . فقال لهم : على من يعرف أن يعلم من لا يعرف حتى تعرفوا جميعا ، والسلام عليكم جميعا ، ثم ترك المسجد وانصرف .

الحكاية – بلا ريب – مشتقة من حكاية أبي العنبس – التي جمعها ابن عبد ربه وابن عاصم ، والتي نقلناها من قبل – وحين نسبت إلى جحا استغنى عن أن الفحوى مختلفة قليلا ، وأن الحدث يحوَّر هنا إلى حدثين فقط ، الأمر الذي يجعله يتفق مع حكاية لويس دي بينيدو ، في أن تشابهه مع هذا – في ذلك – يختلف مع الروايات العربية المشار إليها ، في أن الخطيب ليست مهنته الخطابة ، وحين صعد المنبر صعده مضطرا في الحالتين أمام إلحاف المؤمنين والمحصول واحد في كل الروايات ، بيد أن المخرج من الأزمة يبدو أكثر طبيعية ، من خطيب حاضر البديهة ،

متعدد المواهب كما هو الحال مع أبي العنبس الذي مهنته الخطابة كما رأينا ، وكما هو الحال مع الشيخ نصر الدين جحا في الرواية التركية .

دراسة هذه الحكاية تستحق معالجة أعمق ، واستقصاء أكثر ، فهي موجودة أيضًا في الأدب الإيطالي حيث البطل بيوبانو أرلوتو ، وكذلك في الأدب الأوكراني كما يقول باسيه ، وولجته بلا ريب عن طريق الأدب التركي .

المحارب الذي لا مخ له :

الحكاية الثالثة ضمن المصنفات التي جمعها دون خوان أركيخو تقول ما يلي :

رجع أحد القساوسة البرتغاليين من هزيمة الملك دون سباستيان في أفريقيا وفي رأسه نشابة غائرة . قال له الطبيب المعالج : ينبغي الحذر جدا لنزعها ؛ لأنها نشبت في خلايا المخ ، وقد مزقتها ، فأجابه صاحبنا : انزعها يا سيدي ؛ لأنه من غير الممكن أن يكون له مخ من يذهب إلى هذه المعركة .

نعثر في مجاني الأدب – المنتخبات الذائعة الصيت ، والتي جمعها الشيخ الفاضل الأب شيخو – على حكاية دون إشارة إلى المصدر المستقاة منه ، منسوبة إلى الشريشي المتوفى 1222 ، تقول ما يلي :

قال أفلح التركي : خرجنا مرة إلى حرب لنا ، ومعنا رجل كان يقول : أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي ، فأخرجناه معنا ، فأول سهم جاء وقع في رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجا فنظر إليه وقال : إن خرج الزج وفيه شيء من دماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس . وسبق فقبل رأسه وقال : بشرك الله بخير ، انزعه ؛ فما في رأسي دماغ . فقال الطبيب : وكيف ذلك . قال : لو كان في ذرة من دماغ ما كنت ههنا .

متوقعا أن تكون الحكاية هذه في الشرح المشهور لمقامات الحريري ، راق لي – متذرعا بالصبر – أن أبحث عنها في هذا الكتاب الذي كما هو معروف يحتوي على ثلاثة شروح مختلفة الكم ، وبالفعل بعد تصفحي لما يزيد عن ثمانمئة صفحة من الشرح الكبير الوحيد الذي تهيأ لي استطعت أن أصل إلى الحكاية في رواية ، تبدو الحكاية السابقة التي أوردتها وكأنها اختصار لها ، ولا أدري هل الحكاية المختصرة في مجاني الأدب والتي نقلتها آنفا منقولة من أحد الشروح الأخرى ، أم أن الأب شيخو اقتضبها دون أن يشير إلى ذلك ، وأورد الآن هذه الحكاية كما هي في شرح الشريشي:

قال أفلح التركي : خرجنا مرة إلى حرب لنا ، ومعنا معلم كان يقول : أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي ، فأخرجناه معنا ، فأول سهم جاء وقع في رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجا ، فنظر إليه ، وقال : إن خرج الزج وفيه شيء من دماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس ، فسبق إليه المعلم فقبل رأسه وقال : بشرك الله بخير ، انزعه فما في رأسي دماغ ، فقال الطبيب : وكيف ذلك؟ قال : لأني معلم كتاب الله تعالى ، وما في رؤوس المعلمين ذرة من دماغ ، ولو كان فيه ذرة من دماغ ما كنت ههنا .

هذه الحكاية في شرح الشريشي إلى جوار حكايات أخرى كثيرة تهزأ بالمعلمين ، وهي – احتمالا – تشكل جزءا من كتاب المعلمين للجاحظ وهو مفقود اليوم ، لكن بقيت منه حكايات عديدة في مصنفات أخر ، وإن كانت لا توجد إشارة واضحة في هذا الصدد ، إلا أن باقي الحكايات المصاحبة لحكايتنا ، والتي تسخر بلا شفقة من المعلمين ينسبها الشريشي إلى الجاحظ ، إحداها بطلها أبو العنبس التي تحدثنا عنها آنفا .

المشابهة التي تعرضها حكاية خوان دي أركيخو مع الحكاية العربية التي نقلها لنا الشريشي ، وبخاصة في رواية مجاني الأدب لا تحتاج إلى وقفة خاصة ، لكني أعتقد أنه من المناسب لفت النظر إلى حادثين في الرواية المسهبة ، في الحكايتين ثمة تداخل

هو بلا شك ما يتعلق بالبطل . معلم في الحكاية العربية : نموذج لرجل مغفل يسخر منه الجاحظ بشدة ، ويبدو أنه هو الذي رسمه من خياله (المعلم الذي صلح بيننا أيضًا نموذجا لهجائيات مقذعة) وفي الحكاية الإسبانية معلم صبيان – وهو في الوقت ذاته الذي يعلم الصبيان المعارف الدينية مع تحفيظه القرآن لهم – هو قسيس (في الترجمة الأقرب للكلمة) شخصية لا تزال أيضًا محط سخرية في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر ، ويعرض خوان دي أركيخو نماذج متعددة في مصنفه .

وكما هو الحال في المشهد العاشر المشهور في «الحياة حلم» لكالديرون ، العالم يوازى الفقيه في الرواية الأصلية في الترجمة الذاتية كما أشرت إلى ذلك في مناسبة أخرى ، فالمعلم هنا هو معلم كتّاب قد تحول إلى قسيس برتغالي .

ما زال لدينا إمكانة العثور على صدى للأصل العربي السابق إذ بينما يتطوع معلم الصبيان المتشوق للمعرفة مع فرقة أفلح التركي – رجل معروف بالشجاعة ، ومات في الحرب – في موقعة الحرة – فإن القسيس في الرواية الإسبانية سفك دمه في معركة القصر الكبير تحت قيادة ذلك الملك الشجاع والسيء الحظ ، والذي قتل في الحرب أيضًا .

رواية إسبانية أخرى ، مشوهة بعض الشيء ، وفي تورية متكلفة ، وهو شيء يطبي المؤلف كثيرا ، عثرت عليها في أيكة سانتاكروث : البرتغالي فيها جليقي ، والحرب بلا تدقيق كثير (حرب غرناطة) .

مضى جليقي إلى حرب غرناطة ، فنشب في رأسه سهم حين رآه الطبيب المعالج قال له : لن تنجو ؛ لأن السهم نشب في المخ ، فأجابه الجليقي : هذا غير ممكن . فرد عليه الطبيب : إنني أراه . فقال الجليقي : أقول إن هذا غير ممكن ؛ لأنه لو كان لدي مخ لما مضيت إلى تلك الحرب .

انتقلت الحكاية من أيكة سانتاكروث إلى أيكة فرانسسكو اسنسيو المنشورة في سنة 1730 ، يتقيل الأخير خطى السابق حتى في عنوان كتابه . أعاد تحرير الحكاية القديمة ليضمها إلى الفصل الذي عنوانه «التحديات» وها هي الرواية الجديدة – وليست الأخيرة دون ريب – التي تحتفظ بالإجابة المسكتة التي في الحكاية العربية :

أصابت أحدهم نشابة في رأسه ، فشقتها نصفين ، فحصه الطبيب ، وأثناء الفحص حاول أن يتحقق هل أصابت خلايا مخه ، فقال له الجريح : لا عليك من البحث ، فلو كان لي مخ ما دخلت فيما دخلت فيه .

حين انتهيت من تحرير هذا المقال ، وعلى أهبة إرساله إلى المطبعة ، أتاح لي – متكرما – دون إميلو غرثيه غومث أن أرجع إلى المخطوط رقم 91 من مجموعة جاينجوس المحفوظة في الأكاديمية الملكية للتاريخ ، وتضم كتاب ابن عاصم (حدائق الأزاهر) انظر الورقة R3 ؛ لأنني لم أستطع رؤية طبعة الحجر التي نشرت في فاس ، لم أجد تغييرات هامة في تحرير الحكايتين الأوليين اللتين درستهما في هذه الصفحات (حكايتا بينيدو) بيد أن هذه المراجعة أتاحت لي التأكد من شيئين قد توقعتهما :

1- ثالثة الحكايات لدى خوان دي أركيخو موجودة هنا أيضًا في الورقة 95 V في رواية مشابهة لشرح الشريشي مع بعض تحويرات . الحجام ، الحلاق (في الإسبانية القديمة Alfajeme) بدلا من الطبيب ، وشيء آخر لا يغير شيئا من المعنى .

2- تأتي هذه الحكاية مستهلة بالجملة : قال الجاحظ ، وهو أمر قد توقعته قبلا ، أو كان يشكل جزءا من كتاب المعلمين ، في مكان قال أفلح التركي .

الشيء الجديد هو أن الحكايات المنوعة التي تسبق هذه أو تتأخر عنها في المخطوط تأتي في نفس الترتيب في شرح الشريشي ، وبتصفحي عابرا المخطوط

عثرت على حكايات كثيرة كذلك في شرح الشريشي وهو مصدر استخدمه ابن عاصم بلا ريب .

أمام هذه الحكايات الثلاث في كتاب ابن عاصم – وهو متأخر ، وكان مصنفه ذائعا جدا ، وحفظت منه مخطوطات كثيرة – توقعت أن هذه الحكايات ترجمها أحد الموريسكيين – وأولجها في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر ، وليست هذه الحكايات وحدها التي تشير إلى ذلك ، فإنني آمل أن أدلل على ذلك قريبا بنماذج جديدة .



حــكايتـان عـربيتـان من حكايات اللصوص في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر

Dos Cuentos Arabes de ladrones
en la literature espańola del
Siglo XVI -

Al-Andalus
Vol : XXXIII 1968
Fasc . 2



حكايتان عربيتان من حكايات اللصوص
في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر

في القسم الأول من العدد الماضي من مجلة الأندلس نشرت مقالا ألمحت فيه إلى أصل عربي لثلاث حكايات في الأدب الإسباني ، في القرن السادس عشر ، أولاها حكاية التينات الثلاث الموجودة في كتاب الملح لمؤلفه لويس دي بينيدو ، وفي الأيكة الإسبانية لمليتشور دي سانتاكروث ، وفي حديث المائدة لخوان دي تيمونيدا ، كما ظهر صدى الحكاية الأخيرة في مجمع الأمثال لجونثالوكورياس ، وظهر مرة أخرى في القرن التاسع عشر في كتاب حياة بدرو سابوتو للكاتب الأرغوني براوليو فوث ، والحكاية لدى أبي بكر محمد بن عاصم الوزير القاضي الغرناطي المتوفى في سنة 1425 ، في كتابه حدائق الأزاهر والأمثال والحكايات والنوادر . والحكاية الثانية الخطيب البكيء اللسان ، والتي لم أعثر لها على رواية إسبانية أخرى ، وهي كذلك في كتاب الملح لبينيدو ، وتحكي عن شاعر مشرقي من القرن التاسع في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه من شعراء عبد الرحمن الثالث ، وبلا ريب هذه الحكاية انتقلت من العقد إلى حدائق الأزاهر ، وحظيت فيما بعد بتطور كبير في الأدب العربي الشعبي ، أما الثالثة ، فهي حكاية الجندي الأحمق التي جمعها المصنفون بأمر من خوان دي أرجيخو ، وهي في أيكة سانتاكروث ، وتبدو مرة أخرى بصورة جديدة في أيكة فرانسسكو أسنسيو في القرن الثامن عشر ، وتوجد كذلك لدى كاتبين إسبانيين : الشريشي المتوفى سنة 1222 في شرحه لمقامات الحريري ، وبصورة موجزة فيما بعد لدى ابن عاصم .

الحكايات الثلاث شديدات الوجازة ، وخليق أن تطلق عليها نادرة أكثر مما يطلق عليها حكاية ، وهي أكثر وجازة في نظائرها الإسبانية ، حيث اختفت بعض الحواشي ، وبقيت فحسب هيكلا محضا في ثوب ملائم للفترة ، مع تغيير مهن الشخصيات ، وفي بعض الأحيان تُعَمّد بأسماء قشتالية بصورة مباشرة ، وفي الوسع أن تبدو – في جملتها – قشتالية تماما داخل إسبانيا في القرن السادس عشر . ولدى عدم الوقوع على أي شاهد لأصل أية حكاية في الأدب الإغريقي واللاتيني ، أو الإيطالي . فلم يشك أحد في أنها إسبانية خالصة ، وهو أمر صحيح في الواقع ، بالنسبة للحكايات الثلاث : حكايات إسبانية مما وراء الحدود .

حاولت في هذه الصفحات أن أكون محترسا إلى أبعد حد ، ولا تدفعني الحماسة التي تتوقع (يدرك هذا فقط أهل الحرفة) اكتشافات من هذا الطراز ، فقط في الفترة الأخيرة أدليت بالفكرة ، وبشيء من الحذر ، وهي أن الحكايات العربية الثلاث من الممكن أن يكون قد ترجمها أحد الموريسكيين ، وولجت بذلك الأدب الإسباني ، وبطريقة شفوية احتمالا ؛ إنها النكات التقليدية التي يمكن لأي شخص – ولا نقول شخصا مسلما تمرن على الحفظ منذ طفولته – أن يقولها في جماعة ، وعلى الأقل هي موجودة بين الشعب منذ قديم ، ودون أي شك في أصلها العربي .

أنهيت المقال مؤكدا أن هذه الحكايات العربية الثلاث دخلت الأدب الإسباني في القرن السادس عشر ، وليست الحكايات هذه وحدها هي التي دخلت ، وأعد أن أدلي بشواهد جديدة من هذا الطراز .

حكايتا اللصوص اللتان أدرسهما في هذه الصفحات يمكن أن تتسربا من اليد ، ليس فقط بواسطة مهنة الشخصيات ، بل لأن كلتيهما يظهران في الكتابين اللذين صنفهما كاتبان إسبانيان في القرن السادس عشر ، كما نرى فيما يلي :

حكايتان عربيتان من حكايات اللصوص

أثناء مطالعتي للكتاب المهم «المنتخبات» لدون لويس ثاباتا قيدت بعض الروايات التي قد قرأتها بالتأكيد منذ زمن في اللغة العربية . الأولى كما نرى ليست رواية بالمعنى الدقيق ، بل هي حكاية تقول ما يلي :

غدا يبكون :

بينما يتعسس حاكم بالليل ، عثر على لصوص يحملون صناديق ، فنادى : اقبضوا عليهم ، اقبضوا عليهم ، وسوقوهم إلى العدالة ، فامتثل عشرون حارسا بأمر الحاكم، فقال له اللصوص : أيها السيد : مات صاحب هذه الدار ، ونحن ننقل هذه الصناديق إلى دار أخرى ، فقال لهم : كيف لا يبكون إذن ؟ فأجابه اللصوص : أيها السيد ؛ غدا يبكون ، لأنه لم يحن بعد وقت البكاء «وفي يوم آخر مر الحاكم بتلك الناحية ، فسمع صياحا يملأ الشارع كله ، فعلم أن اللصوص في تلك الليلة قد سرقوا الدار» .

عسير أن تعثر على إبرة في التبن ، ومع ذلك أنشأت أبحث ، تصفحت بعض مجلدات الحكايات العربية ، شرعت فيما هو في متناول يدي منها ، دون أن أصيب حظا ، أيكون ما قرأته – في نهاية المطاف – حكاية إسبانية ، ربما تكون معروفة في الأدب الإغريقي أو اللاتيني ؟ لم يقل ناشر المنتخبات دون باسكوال جاينجوس شيئا لا في المقدمة ولا في حاشية حول هذه الحكاية ، برغم أنه مستشرق . والحق أن هذه الطبعة بها هوامش كثيرة ، لم أجد مناصا من الرجوع إلى «أصول القصة» لميننددث بيلايو : «لتفصيل كل الهوامش التي أضافها ثاباتا إلى القصة ، يقتضي الأمر مجلدا ليس أقل من المنتخبات ؛ لأنه لا يكاد يوجد فصل ليس فيه حكايات متعددة ليست مخترعة على هواه ، بل مرتكزة على أشياء واقعية شاهدها المؤلف أو وصلت إليه عبر رواة ثقات ، غير أن هذا لا يعني أنها في أحيان كثيرة كانت بعيدة عن التصديق أو غير ممكنة ، وبلا ريب فإن الحسن لدى دون لويس أنه كان مفرطا في سرعة تصديقه في رواياته» .

لقد وضعت خطا تحت جملة تبدو لي ذات دلالة . وبالتحديد تستطيع أن تعين الحكاية التي نعالجها ، ولماذا تكون بعيدة عن التصديق وغير ممكنة . ويضيف – على صواب كبير – وإن كان لا يأتي بمثال : «إذن هي حكايات حقيقية كثيرة ذات أشياء عجيبة يرويها ، ويقع كتابه في هذه الناحية في دائرة القصة الأولية غير الواعية» وليس هذا أيضًا شأن الحكاية التي ندرسها ولا التي تليها .

بعد قليل ، وفي مكتبة تبيع الكتب القديمة والرخيصة رأيت طبعة «المنتخبات» التي نشرها إيسدورو مونتييل في سنة 1949 ، وأظن أنها نفدت ، اشتريتها ، وعاودت قراءة الفصل المطول بعنوان : «أمثال» حيث نرى حكايتنا هذه والحكاية التي ندرسها فيما بعد ، تحتوي تلك الطبعة على مقدمة جيدة ، ومجلد من الهوامش ليس أقل من المنتخبات نفسها كما تصور دون مارثيلينو ، وكان عليه أن يعرف هذا ، لم أعثر على أية إشارة ، وهذا ما دفعني إلى أن أفكر في أن الحكاية معروفة في الأدب الكلاسيكي أو الأدب الأوربي ، ويمكن أن تكون جاءت ملحقة .

قارئا من جديد «الأيكة» لسانتاكروث عثرت على الحكاية ذاتها ، وتقول ما يلي :

خطر حاكم كبير في أحد الشوارع ، فرأى رجالا يخرجون صناديق وأشياء أخرى من أحد المنازل ، سألهم : إلى أين تحملون هذه الثياب؟ أجابوه : يا سيدي . لقد مات شخص في هذا المنزل ، ونحن نحمل هذه الصناديق إلى منزل آخر . فقال لهم الحاكم الكبير : كيف لا يبكون إذن ؟ أجابه أحدهم : يا سيدي ، في غد يبكون ، ثم عاد في يوم آخر إلى تلك الناحية فوجد نسوة يبكين في تلك الدار ، شاكيات من أنهن قد سرقن» .

هدأ خاطري ؛ إذ أنني عانيت – كما هو بين – من عبث الذاكرة ، فحكاية ثاباتا التي اعتقدت أنني قرأتها في العربية هي ببساطة حكاية إسبانية أخرى قرأتها منذ أشهر قلائل فقط . بدا لي الأمر طبيعيا ؛ إذ أنني أخيرا قرأت حكايات كثيرة عربية

وقشتالية ، ولا يعدو الأمر إلا أن حكاية صغيرة ذات قيمة محدودة في الأدب العربي، ضلت في فهرس ذاكرتي .

وعلى كل حال ، فإن دون مارثيلينو ميننديث بيلايو عند حديثه عن ثاباتا الذي خصص له صفحات متعددة في كتابه «أصول القصة» . لم يستند إلى سانتاكروث دي دوينياس ، ولا عند دراسته «الأيكة» التي خصص لها صفحات طوالا ، وكذلك لم يشر إلى إحدى حكاياته التي وردت في «المنتخبات» (وهو ما حدث أيضًا كما نرى في حكاية أخرى عن اللصوص) . استعدت الثقة بنفسي قليلا ، وفهمت مدى الصعوبة – في هذا النوع الأدبي ، ومعالجة حكايات موجزة جدا ، ومتشابهة في مضمونها ، وهي بالمئات في أدبنا – مدى الصعوبة في الوقوف على علاقة بعضها بالبعض الآخر .

استغل ثاباتا الذي كتب المنتخبات ما بين 1591 ، 1594 ، 1595 (تاريخ غير محدد لوفاته) حكاية من الأيكة الإسبانية لسانتاكروث التي بلغت في هذه التواريخ على الأقل الطبعات التالية حسب فهرس شيندر Schneider الذي ذكره ميننديث بلايو : طليطله 1574 ، شلمنقه 1576 ، بلنسيه 1580 .

يتعلق الأمر إذن بروايتين مختلفتين جدا للحكاية ذاتها ، وليس بالنقل الحرفي للحكاية نفسها ، الذي ينتقل من كتاب إلى كتاب آخرين خلال تلك الحقبة . ويمكن اعتبار الأمر في النهاية أن حكاية شعبية أخذها واحد من آخر وحررها بأسلوبه الخاص . حررتُ ملاحظة في مذكرة صغيرة ، ووضعت عنوانا للجملة المتشابهة في كلتيهما «في غد يبكون» . لم أكد أصنع هذا حتى جرى هاجس بنفسي ، يتمثل في أن هذه الكلمات لها إيقاع المثل إلى درجة أنني تذكرته . وفي الواقع فإن جونثالو كورياس هذا الرجل المدقق ، والذي أملك نسخة من كتابه طالعتها أكثر من مرة ، تضم هذا المثل كما هو في كتابه العظيم «القاموس» بهذه الصورة الآتية :

حكايتان عربيتان من حكايات اللصوص

كان بعض اللصوص يخرجون في وقت متأخر ثيابا ، وشوار منزل ، وصلت دورية الحرس ، وسألتهم : من أنتم ؟ أجابوهم : لقد مات هنا أحد السكان ، ونحن ننقل متاع الأرملة إلى منزل آخر ، قال لهم الحرس : كيف لا يبكون إذن ؟ أجابوهم: في غد يبكون .

هذا المحتوى الوجيز للحكاية ذاتها ، والذي جمعه الأستاذ كورياس في الربع الأول من القرن السابع عشر يقترب أكثر لما يمكن أن تكون عليه الحكاية العربية ، وهذا ما دفعني إلى متابعة التفكير في المسألة ، ومزاولة البحث .

مطالعا حدائق الأزاهر لابي عاصم ، في المخطوط المنسوب إلى جانيجوس وهو الناشر الأول لمنتخبات لويس ثاباتا ، عثرت على الحكاية العربية – في النهاية التي كنت أبحث عنها ، وهذا نصها :

وخطر حاكم بالليل ، وهو يطوف بالمدينة على سارق ينقب دارا ، فقال له : ما هذا ؟ قال له : مات لنا ميت ، وأنا أحفر له من أين يخرج ، فقال له الحاكم : وأين أمارة الموت البكاء والصراخ ؟ قال : آخر الليل تسمع النياح .

بلا ريب هذه الحكاية هي الأصل – ومن يدري إذا كانت أصلا مباشرا – للحكاية الإسبانية التي قدمت رواياتها فيما سبق ، وأعتقد أنني قرأتها لمؤلف عربي آخر ، لكن لم أستطع الوقوع عليه .

على أن أكتفي إذن بالإشارة فقط إلى هذه الرواية التي أكرر أنها لدى كاتب غرناطي توفي في سنة 1425 .

ثمة حكاية مشابهة جدا ، ومشوهة لهذه منسوبة إلى جحا في السلسلة التركية ، تحكي نوادره ، تقول ما يلي :

كان ذات ليلة راكبا مع تلميذه عائدين إلى داره ، فرأيا لصوصا يلعبون بقفل الباب ، فخشى إذا عارضهم أن يقع في هلكة ، فلم ينبس ببنت شفة ، بل انسحب

جانبا وكانوا قد تألبوا على الباب يعالجونه ، فسأل حماد شيخه قائلا : ماذا يصنع هؤلاء ؟ فقال له : يضربون على الرباب ، فقال حماد : لماذا لا يخرج صوتها؟ ، فقال : غدا يخرج صوتها .

إلى أين ننتقل ؟

حكاية اللصوص الأولى ، في منتخبات ثاباتا ، ما يلي :

أطل بيخرانو من شرفة منزله ، فرأى بعض اللصوص يخرجون صندوقا ، فصاح بأعلى صوته : إيه يا هؤلاء : إلى أين ننتقل ؟ حين سمعوا صياحه ، تركوا الصندوق، وهربوا .

هذه الحكاية التي يقصها ثاباتا كما حدثت ، إلى درجة ذكره اسم الشخصية التي تحدث عنها ، هي في الواقع قد ذكرها من قبل عند حديثه عن رواية أخرى ، وسماها «بيخرانو» وهو أحد الكتبة المعروفين باللوذعية في أشبيلية ، هذه الشخصية مذكورة أيضًا في الأيكة الإسبانية لسانتاكروث لكن باسم بدرو ألْنجرو ، وكما يمكن أن يظن فإن ثاباتا استخدم كلتا الشخصيتين في كتابه . وها هي حكاية سانتاكروث :

سرق مجموعة من اللصوص في طليطلة رجلا يسمى بدرو ألنجرو ، سرقوا منه صندوقا ، وحشيتين ، حين عودته من الخارج رآهم ، فمضى وراءهم ، سألوه حين رأوه يقتفي أثرهم : ماذا يريد ؟ أجابهم : ذاهب لأرى إلى أين تحملونني .

جمع هذه الحكاية رينيه باسيه في كتابه ألف حكاية وحكاية تحت عنوان : «انتقال غير متوقع»

وسهل ملاحظة علاقتها بهذه ، وإن كان واضحا أن الحكاية ليست هي ذاتها ، بل هي رواية موسعة ، تقول ما يلي :

ذات ليلة دخل لص منزل جحا ، وحمل جزءا من الأثاث ، فحمل جحا باقي الأثاث وتبعه ، فالتفت اللص ، فرأى جحا آتيا وراءه ، قال له اللص : ماذا تريد أيها

الرجل ؟ رد جحا : نحن ننتقل من منزلنا إلى منزلك ، وأنت حملت بعض الأثاث ، وأنا أحمل البعض الباقي ، وغدا مع مطلع الصباح تصل الزوجات والأولاد ، كم سيسعدون لتركهم منزلا خربا . فدهش اللص وقال له : خذ أمتعتك ، ودعني .

صورة مغايرة للحكاية ، إنها أقرب إلى الحكاية الإسبانية ، وهي في نوادر جحا الكبرى كما يلي :

دخل لص منزل جحا ، وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الأثاث حتى دخل وراء اللص إلى داره ، ونظر اللص وراءه فرآه يدخل الدار فسأله : من أنت يا هذا ؟ قال : أنا صاحب هذه الدار التي نقلتنا إليها .

صادفت هذه الحكاية تطورا شعبيا كما حدث تقريبا لكل نوادر جحا العسيرة التأريخ ، ولها طبعات تركية وفارسية وبربرية ، وكذلك طبعة توسكانية شعبية ، يؤكد باسيه الذي استقى منه هذه المعلومات : أن أقدم شكل لهذه النادرة موجود في كتاب ألفه بالسريانية بار هبراوس . الأسقف السوري المعروف ، وابن أحد اليهود المرتدين ، العارف بالعربية واستخدم بصورة خاصة اللغة السريانية في تحرير مصنفاته ذات الموضوعات المتباينة . وعاش ما بين سنة 1226 – 1286 ، لم أستطع للأسف العثور على الترجمة الإنجليزية الموجودة في قصص ضاحكة : The Laughable Stories والتي نشرها Sir . E . A . Wallis Budge

ومع ذلك كان لي حظ الوقوع على رواية عربية قديمة جدا ، أخذها من العربية بلا ريب Bar Hebraeus ، ضمن أحد مؤلفات أبي إسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني ، هذا الأديب القيرواني المعروف أستاذ عالمين جليلين : ابن رشيق ، وابن شرف ، والمعروف أكثر بكتابه زهر الآداب ، والمتوفى سنة 1022 ، أي قبل أكثر من قرنين من مولد Bar Hebraeus . وفي مؤلف آخر له هو جمع الجواهر نشر أولا بعنوان ذيل زهر الآداب نجد حكايتنا هذه التي تقول ما يلي :

ودخل على أبي سعيد اللصوص فأخذوا كل ما في داره ، فلما مضوا حمل أبو سعيد البارية ومضى في إثرهم ، فنظر إليه أحدهم فقال : أي شيء تصنع معنا ؟ ، قال : نطلب بيتا نتحول فيه بمرة ، فضحك اللصوص ، وردوا عليه ما أخذوه منه .

يحدثنا الحصري عن شخصية أبي سعيد في حكاية أخرى شبيهة بها في تفصيلاتها، حيث يذكر فضلا عن ذلك نسبته «الحربي» ، ولم أستطع تحقيق هذه الشخصية ، وهي بلا ريب أحد الأبطال الكثيرين في الحكايات والنوادر والقصص في الأدب العربي .

ليس ثمة ضرورة للمقارنة الدقيقة بين هذه الحكاية ، وبين حكايتي سانتاكروث، وثاباتا ، ثمة خلافات طفيفة في الموضوع نفسه ، بمشاهد جديدة ، طليطله ، وأشبيلية ، وشخصيات جديدة بدرو ألنجرو ، وبيخرانوا على التوالي ، ورواية الحصري أقرب إلى رواية أيكة سانتاكروث ، ففيها صاحب الدار كان غائبا ، ويفاجأ باللصوص في اللحظة الأخيرة حين خروجهم من الدار ، فيتبعهم ، وفي رواية ثاباتا يتحدث بطل الحكاية مع اللصوص من الشرفة ، لكن من الواضح أن الحكايتين قريب من قريب .

كيف ولجت هذه الحكاية إلى الأدب الإسباني ؟ عسير الوقوف على هذا في البداية . الحصري من القيروان ، مدينة ذات علاقة وثقى بالأندلس عبر تاريخها كله، وكتابه بلغ شهرة واسعة بين الأندلسيين ، وذاع ، واستخدمه الكتاب الإسبان في أعمال أدبية أخرى . ولا ننس أن ابن عمه ، ولعله ابن أخيه هو الشاعر الضرير أبو الحسن علي الحصري ، ولد كذلك في القيروان ، وترك المدينة عندما غزاها بنو هلال ، ذاهبا إلى إسبانيا بدعوة كريمة من المعتمد ملك أشبيليه ، واقتصر على مدحه، وظل يستوهبه العطايا حتى بعد عزل المعتمد ، ومر بطنجة في طريقه إلى المنفى .

حكاية مثل هذه شديدة الوجازة يمكن أن تدخل الأدب الاسباني ، من العربيـة عن طريق الترجمة الشفوية في أي وقت ، ليس ثمة – فيما أعلم ، حكايات سابقة لهذه – هذا الوقت يمكن أن يكون متأخرا جدا ، في وقت لاحق لغروب شمس غرناطة، الحصن الأخير للإسلام الإسباني .

وينبغي ألا نغض الطرف عن الموريسكيين ، وألا ننسى دورهم الملموس في نقل الثقافة العربية التي تموت إلى الثقافة الإسبانية ، وبالنظر إلى الوجازة الشديدة في هذه الحكايات ، فإن نقلها من لغة إلى أخرى سهل جدا ، ولنتذكر أن الموريسكيين بالتالى كانوا ينسون لغتهم الأصلية ، ويتعلمون الإسبانية لغة المنتصرين .

لـدي كـذلك مجموعـة أخـرى مـن الحكايـات ، سأنـشرها تباعـا ، كلهـا ذات خصائص متشابهة ؛ وجازتها ، لغتها البسيطة ، خاتمتها المفاجئة التي تتحـول بهـا إلى نوادر سهلة الفهم والقص ، وفي بعض الأحيان فإن الأصل العـربي لطولـه المفـرط يوجز في الرواية الإسبانية ، وسنعود إلى الموضوع .



عقوبة المتغزل

حكاية إسبانية من أصل عربي

Origen Arabe de un Cuento de

Luis de Zapata

Al-Andalus

Vol : XXXIV 1969

Fasc . 4



حكاية إسبانية من أصل عربي

في المجلد السابق من هذه المجلة[1] نشرت مقالا قصيرا حول حكايتين ، كلتاهما في «أيكة الأمثال الإسبانية» لصاحبها ملتشور دي سانتاكروث دي دوينياس ، (في طبعتها الأولى - طليطلة سنة 1547) ، وفي كتاب التاريخ المتنوع ، والمعروف باسمه الأكثر شهرة «المنتخبات» لمصنفه لويس دي ثاباتا دي شابس (كتبت في العقد الأخير من القرن السادس عشر ، وإن كانت لم تنشر إلا في سنة 1859 بعناية دون باشكوال دي جاينجوس) . وعن كلتا الحكايتين اللتين تكادان تكونان شيئا واحدا في الطبعات الإسبانية المتعاقبة أشرت إلى أصولهما العربية ، وشفعت النص الأصلي بترجمته ، واقتصر عملي تقريبا في الوقوف على التشابه ، وإعادة نشر النصوص مجتمعة .

ولدى تحرير هذا المقال كانت لدي حكاية أخرى - إذا أطلقنا عليها هذا الاسم - لثاباتا ، وكذلك أصلها العربي فيما أعتقد ، بيد أني لم أرد أن أضمها إلى هذه الصفحات لئلا أخل بوحدة الموضوع مما جعلني مضطرًا من جانب آخر إلى الاستغناء عن عنوان كان قد راق لي .

وفي نهاية المقال أتحدث عن كيف استطاعت الحكايتان الولوج إلى الأدب الإسباني - بالطريق الشفوي بواسطة الموريسكيين من غير شك ، مادمنا لم نقف على

(١) هي مجلة «الأندلس» التي كانت تصدرها مدرسة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة .

وسائط أخرى - أعني خصائص الحكايات التي انتقلت من الأدب العربي إلى الأدب الإسباني : الوجازة ، الأسلوب السهل البسيط ، الحكايات الملائمة أكثر للرواية كأنها مُلَح بسيطة ، وقد تحقق هذا في كثير منها ، وهي خصائص تمثلت في حكايتي اللصوص ، وفي ثلاث أخر نشرتها من قبل ، وفي حكايات متعددة جمعتها وأرجو نشرها قريبا .

هذه الخصائص - وإن كانت من نوع آخر ؛ إذ لا صلة لها بالفكاهة - أسهمت إلى حد أن كالديرون دي لا باركا نحت من قضيته في المشهد العاشر المشهور من مسرحيته «الحياة حلم» رواية فقيه قرطبي ، وتبناها كذلك دون خوان مانويل وقد درست هذه المسألة منذ سنوات . وثمة رواية أخرى لشاعر أندلسي من قرطبة الخلافة أيضًا - لكن هذه الرواية لها حواشيها الفكاهية - وجدت كذلك الأدب الإسباني ، في أمدوحة لاجوستين روخاس الذي بلغ بالمسألة غايتها الممكنة ، ومنحها كل اللطافة التي تستحقها ، وهو موضوع درسه حديثا صديقي العزيز وزميلي دون إلياس تيريس . وثمة حكاية عربية أخرى تحمل الخصائص ذاتها سجلها كتاب لاثاريو دي تورمس ، واكتشفها ودرسها بجدارة فرانثيسكو أيالا في مقال موجز وهام ، وهو موضوع أفكر في نشر تعليق عليه (يحمل طابعا جديدا) في هذه المجلة ذاتها .

قلت في مناسبة ما : الأصل العربي ، ونظرا للإطناب المطول اختصرته في النص الإسباني ، كنت أشير إلى الحكاية العربية التي أوحت إلى ثاباتا بموضوعه في إحدى حكاياته ، وهو موضوع أتناوله بالدراسة في الصفحات التالية :

بإيراد مثل صحيح يحكي ثاباتا واقعة حدثت - حسبما يروي هو - في إكستريمادورا ، تحت عنوان جانبي يشي بالهدف الأخلاقي : حكاية امرأة شريفة وزوج محترم ، وعقوبة رادعة وكافية . لنر ما يقول :

الحركات الأولى ليست في يد الإنسان ، وإلا فإنه في هذا العالم المحزن يحدث لامرأة شريفة أن يغازلها البعض بصورة ملحة لإزاحة من يحبها حبا جما ، وهي للوهلة الأولى لا ينبغي أن تخبر زوجها بذلك ؛ لأن هذا الكتمان لا يندرج تحت الخيانة العظمى للرب ، وهو بدون تمهل ، مر بفكره ، إلا أن امرأة محصنة يقتفيها رجل من إكستريمادورا أخبرت زوجها البعيد بذلك ، وعرفته أن رجلا يغازلها ، ويحاصر منزلها ، عابرا به ، ويناوش عفتها بطرق متعددة ، فقال لها زوجها ؛ عليها أن ترحب بالخصم في المنزل ، ونشر أنه ذاهب إلى الضيعة ، ويعود مختبئا في كمين . يدخل العاشق المخدوع ، فيخرج الزوج والزوجة وغلام لهما للدفاع ، فيغرونه ، ويقيدونه ، ويوثقونه في الطاحونة ، ويجعلونه يديرها بدلا من الحيوان ، ويجلدونه بالسوط ، جاعلينه يطحن ، أما الزوج – لعدم وعي المخدوع – خاشيا أن يموت ، فقد وخزه بالمهماز بعد بضعة أسواط ، وبعد عقوبته ، والتنكيل به بهذه الصورة ، أطلقوه وما عليه سوى قميص إلى داره ، وفي الصباح التالي أرسلوا إليه بفطيرة من الدقيق الذي طحنه جيدا .

تذكرنا الحكاية التي رواها ثاباتا ، والتي حدثت في إكستريمادورا (موطنه) بحكاية في ألف ليلة وليلة ، حدثت في بغداد ، حيث البطل – أو على الأصح البطل المخذول – نشاهده في مأزق متشابه ، إنه شيء من صروف الدهر التي حدثت للأخ الأكبر للحجام الذي يحكيها هو بنفسه للخليفة . تقريبا في بداية ألف ليلة وليلة ، ومن هذه الحكاية الطويلة نسبيا – لأن إخوة الحجام الستة يعانون خطوبا عديدة وغريبة – أنقل فيما يلي ؛ لراحة القارئ بدايتها فقط حيث نبدأ من مشكلة الطاحونة:

اعلم يا أمير المؤمنين أن الأول وهو الأعرج كانت صفته الخياطة ببغداد ، فكان يخيط في دكان استأجرها من رجل كثير المال ، وكان ذلك الرجل ساكنا في الدكان ، وكان في أسفل دار الرجل طاحون ، فبينما أخي الأعرج جالس في الدكان ذات يوم إذ رفع رأسه ، فرأى امرأة كالبدر الطالع في روشن الدار وهي تنظر الناس .

فلما رآها أخي تعلق قلبه بحبها ، وصار يومه ذلك ينظر إليها وترك اشتغاله بالخياطة إلى وقت المساء ، فلما كان وقت الصباح فتح دكانه وقعد يخيط وهو كلما غرز غرزة ينظر إلى الروشن ، فمكث على ذلك مدة لم يخيط شيئا ، يساوي درهما ، فاتفق أن صاحب الدار جاء إلى أخي يوما من الأيام ومعه قماش وقال له فصل لي هذا وخيطه أقمصة ، فقال أخي سمعا وطاعة ، ولم يزل يفصل حتى فصل عشرين قميصا إلى وقت العشاء ، وهو لم يذق طعاما ، ثم قال له كم أجرة ذلك فلم يتكلم أخي ، فأشارت إليه الصبية بعينيها ألا يأخذ منه شيئا ، وكان محتاجا إلى الفلس ، واستمر ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا القليل بسبب اجتهاده في تلك الخياطة . فلما فرغ من الخياطة التي لهم ، أتى إليهم بالأقمصة وكانت الصبية قد عرفت زوجها بحال أخي ، وأخي لا يعلم ذلك ، واتفقت هي وزوجها على استعمال أخي في الخياطة بلا أجرة ، بل يضحكون عليه ، فلما فرغ أخي من جميع أشغالهما عملا عليه حيلة ، وزوجاه بجاريتهما وليلة أراد أن يدخل عليها قالا له : ابت الليلة في الطاحون ، وإلى الغد يكون خيرا ، فاعتقد أخي أن لهما قصدا بريئا ، فبات في الطاحون وحده وراح زوج الصبية يغمز الطحان عليه ، ليدوره في الطاحون ، فدخل عليه الطحان في نصف الليل ، وجعل يقول إن هذا الثور بطال مع أن القمح كثير ، وأصحاب الطحين يطلبونه ، فأنا أعلقه في الطاحون حتى يخلص طحين القمح ، فعلقه في الطاحون إلى قرب الصبح .

فجاء صاحب الدار فرأى أخي معلقا في الطاحون ، والطحان يضربه بالسوط فتركه ومضى ، وبعد ذلك جاءت الجارية التي عقد عليها وكان مجيئها في بكرة النهار فحلته من الطاحون ، وقالت له قد شق علي وعلى سيدتي ما جرى لك ، وقد حملنا همك ، فلم يكون له لسان يرد جوابا من شدة الضرب ، ثم إن أخي رجع إلى منزله ، وإذا بالشيخ الذي كتب الكتاب قد جاء وسلم عليه ، وقال له : حياك الله ، زواجك

مبارك أنت بت الليلة في النعيم والدلال والعناق، من العشاء إلى الصباح، فقال له أخي: لا سلم الله الكاذب يا ألف قواد، والله ما جئت إلا لأطحن في موضع الثور».

ليس من الضروري التحليل بعمق؛ للوقوف على نقاط التشابه في الحكايتين مستغنين عن العقدة، إذ هي أشد تعقيدًا في ألف ليلة وليلة - وهي أشد تعقيدا فيما لم أنقله من الأصل - . حكاية ثاباتا مضمنة في الكتاب العربي، مع فارق يسير؛ فالشخصية لدى ثاباتا تعاني العقوبة التي حملتها إليها جارتها، بينما أخو الحجام التعيس الذي لم يتجاوز التأمل (وإن كان ملحا) لامرأة جميلة، وجارة متدللة، يرى مسخرا في بؤس، وأسير طائفة من التعاسات ضحية عدوان الزوجين وشرورهما، وواضح أن مغامرة الطاحونة تعطي انطباعا بأن ألف ليلة وليلة تضم صورة منقحة جدا لحكاية أكثر بساطة مع إضافة سلسلة من العناصر تبدو غير مناسبة تمامًا، وهي على كل حال تدخل في إطار الكتاب المشهور.

في كتاب «جمع الجواهر في الملح والنوادر» لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني (توفى في سنة 1022) أديب القيروان، والمعروف خاصة بكتاب «زهر الآداب وثمر الألباب» والذي صادف ذيوعا باعتباره من كتب الأدب في إسبانيا الإسلامية، عثرت تحت عنوان - لعله من وضع الناشر -؛ لأنه موضوع بين معقوفتين (يطحن مكان الحمار) على حكاية منسوبة للمدائني، أعتقد أنها الأصل الواضح لحكاية ألف ليلة وليلة، ومنها أخذ لويس دي ثاباتا حكايته، لكن قبل أن نوردها نتوقف لحظة لنعرف بالمدائني للقراء غير المتخصصين في العربية - والذي نقل منه الحصري حكايته:

هو علي بن أبي سيف، يكني بأبي الحسن، ويلقب بالمدائني؛ لأنه عاش في مدينة المدائن قبل أن يستقر نهائيا في بغداد، وولد في البصرة سنة 135 هـ/ 752 م، ومات في بغداد في تاريخ غير محدد ما بين سنة 215/ 830 وسنة 231 / 845. مارس كتابة الأدب والتاريخ، ومن نتاجه الغزير الذي نعرف منه أكثر من مئتي عنوان لم يصل

إلينا فيما يبدو أكثر من كتاب واحد في مجلدين ، وهو غير كامل ، وغير منشور حتى الآن ، بيد أننا نعرف أن مصنفاته أفاد منها مؤرخون وأدباء أتوا بعده ، وإن كانوا لم ينبهوا إلى هذه الإفادة دائما ، ينبغي إذن أن نشكر أبا إسحاق الحصري الذي اهتم بالإشارة إلى مصدر الحكاية التي نتحدث عنها ، الأمر الذي يسمح لنا بأن المسألة كانت موجودة قبل قرنين في أحد كتب الأدب العربي ، وهذا هو النص الذي نقله الحصري أورده هنا :

حكى المدائني قال : كان في المدينة امرأة جميلة عفيفة ذات زوج ، وكان فتى من أهل المدينة يتبعها كلما خرجت ويعرض لها ، فلما آذاها شكته إلى زوجها ، فقال لها : فما عندك في أمره حيلة ؟ قالت : قد فكرت في شيء إن ساعدتني عليه ، قال : فأنا أساعدك فبعثت جاريتها إليه تقول : إن الذي بقلبي منك أكثر مما بقلبك مني . ولكني امرأة مستورة ، ولا أعرف الفساد . فكنت أمتنع عليك وفي قلبي النار . فلما بلغته الرسالة استطار فرحا ، وقال للجارية : ما أدري كيف أؤدي شكرك إذ جرى هذا الأمر على يدك . فبلغيها السلام وقولي لها : إني صائر إليك غدا ، ووهب للجارية دينارا ،وطالت ليلته حتى أصبح فوجه إليها بجدي وفاكهة .

فقالت الجارية : قد وجب علي شكرك لإجابتك إياي في حاجة مولاتي ، وأنا أشير عليك بحيلة بها يتم أمرك . قال : وما هي؟ قالت سيدتي فيها حشمة وخجل وانقباض عن الرجال ، فإذا جلست معك فلا تتعرض لها بكلام ولا بغيره ، حتى تشرب معك أقداحا ، قال : نعم .

وصعدت الجارية فعاونت سيدتها على إصلاح الجدي والطعام ، فلما أحكمتاه نزلت الجارية وبسطت لسيدتها مصلى وجاءت فسلمت وقعدت ، وجاءت الجارية بالطشت والماء فغسلت أيديهما ، ووضعت المائدة بينهما ، وجاءت بالجدي والطعام .

فحين أخذ المخذول اللقمة فوضعها في فمه جاء الزوج فقرع الباب ، فوضعت المرأة يدها على رأسها ، وقالت : افتضحت وهلكت . فقال : دعي الجزع واحتالي

في موضع أكمن فيه إلى خروجه ، قالت : ما أعرف موضعا يخفـى عليـه إلا أن تحـل الحمار الذي في الدهليز وتقوم في مكانه . فقال : افعـلي ، فجـاءت الجاريـة إلى حمـار يطحن في الدهليز مشدود العينين ، فنحته وربطت المغرور مكانه ، وقالت : اطحـن مكان الحمار ، ولا تمسك فـيفطن بـك ؛ فـإني أرجـو أن يخـرج سريعـا ، وترجـع إلى سرورك ، ثم فتحت الباب ودخل الزوج ، فقالت له : خرجت على أن تقـيم أيامـا ، فما الذي جاء بك الساعة ؟ قال : كنت عزمت على ذلـك فمـر بي إخـوان فعرضـت عليهم المقام في الضيعة ، فقالوا : لا يمكنكم اليوم ، ولكننا إن شاء الله تعـالى نـصير إليك غدا فأردت أن يكون مجيئكم إلى البيت أسهل علي ، فبادرت إليك لتصلحي ما يحتاجون إليه وخاصة الدقيق ، فينبغي ألا يفتر الحمار في الدقيق .

فجلسا يأكلان والمخذول يطحن ، ثم وضعا نبيـذا وجعـلا يـشربان ، والـزوج يقول ساعة بعد ساعة : هاتي العصا لكي أقوم لهذا الحمار الملعون ؛ فإني أراه كسلان، ونحن نحتاج إلى الدقيق كثيرا ، فتقوم الجارية فتقول له : الله الله في نفسك ، لا تفتر ، فإني أخاف أن يقوم فيراك .

فلم يزل يطحن دائبا ، والرجل يـشرب مـع امرأتـه إلى أن طلـع الفجـر ، فقـام الرجل فتهيأ للصلاة وخرج إلى المسجد ، فحلت المغرور وقالت : طر إلى بيتك لـئلا يراك إنسان فتفتضح . فخرج يعدو على وجهه عريان ويده على سـوأته ، فـدخل إلى منزله ، وبقي مسبوتا مطروحا على وجهه لا يحرك عضوا .

فلما كان بعد مدة قالت المرأة لزوجها : قد بقى علينا شيء من الولع بالمخـذول . قال : شأنك . فبعثت إليه . وقالت : مولاتي تقرئك السلام ، وتقول لك : الله يعلـم ما تداخل قلبي مما نزل بك ، ولو وددت أني أقيك بنفسي ، ولكن المقادير تنـزل مـن السماء ، وإني إليك لمشتاقة ، فأحب أن تصير إلينا ، فإن زوجي قد خـرج إلى موضـع له فيه مقام شهر ، فنستأنس جميعا ونسترجع ما فاتنا ، فالتفت إليهـا سريعـا وقـال : عسى قد فرغ دقيقكم .

الحكاية التي يرويها لنا ثاباتا هي بلا أدنى شك حكاية الحصري التي نقلها عن المدائني ، وإن كانت موجزة جدا مع بعض الفوارق التي لا تمس جوهر الحكاية ، ولا تلغي الحوار كله ، وهو في ذروة البلاغة في النص العربي ، والجارية التي تلعب دورا مهمًّا في النص العربي اختفت (ربما استبدل بها الغلام) في حكاية ثاباتا ، وفي الروايتين ، اتفق كل من الزوج والزوجة اللذين أحكما حصار المتغزل على عقوبته ، وفيهما تبدأ الحيلة بالخروج المظنون للزوج إلى الضيعة ، وفي كلتا الحكايتين العربية والإسبانية ينتهي المتغزل إلى أن يوثق بالطاحونة ، وإن كان في الحكاية الأولى يتولى المخذول إيثاق نفسه ظانًّا أنه بذلك ينجو من الزوج ، بينما في الحكاية الثانية يتولى الزوج والزوجة والغلام إيثاقه مكان الحمار ، ويعاقبونه بسلسلة من المهانات (بينما ينجو - ذلك في النص العربي) وفي كلتيهما يفك وثاقه ، ويمضي إلى داره عاريا أو شبه عار ، وفي النهاية بعد بيان التغيرات لفحوى واحدة مختلفة بلا جدال ؛ فالنص العربي يحمل شحنة عظيمة من السخرية ، وإن كان في النص القشتالي ظرف أيضًا .

يبدو من المنطقي التفكير في أن حكاية المدائني التي جمعها الحصري ، وجمعها - كما هو معتقد - مصنفون آخرون لكتب الأدب ، قد عرفت وذاعت في إسبانيا الإسلامية ، ربما اعتبرت حكاية شعبية حتى أخذها ثاباتا ، شديدة الوجازة ومشوهة - فيما نعتقد - من مأثور شفوي ، ولم يتردد في ضمها إلى كتابه ، ورسمها بميسم يجمع بين الندرة والسخرية ، وروايته للموضوع بعيدة جدا عن الأصل العربي مما لا يجعلنا نفكر في وجود ترجمة مباشرة ، كما حدث بالنسبة لحكاية أخرى عنده ، عثرت على أصلها العربي - لحسن الحظ - في جمع الجواهر للحصري .

يبدو أنه ليس من المخاطرة الاعتقاد بأن حكاية المدائني - وأعاد صياغتها بصورة مناسبة من يعرف أكثر من رواية - قد وجدت مكانا - على صواب كبير - في كتاب ألف ليلة وليلة ، وعلى كل حال أعتقد أنها لم تلفت نظر أحد ، وبلا ريب

فليس ثمة إشارة في بيليوجرافيا شوفان ، وكتاب الحصري نشر منذ سنوات قلائل مما يجعلنا نعتقد – على كل حال – أن حكاية المدائني موجودة في كتب الأدب الأخرى ، إلى حد إمكان وجودها في فلكلور شمال افريقيا .

موضوع الزوجة التي يتعقبها آخر ، والتي تتحرر منه من خلال أملوحة قاسية بمساعدة الزوج موضوع شائع في الأدب العربي إلى حد كبير . فثمة حكاية مماثلة في جوهرها للحكاية التي رأيناها آنفا ، في كتاب الوزير القاضي الغرناطي أبي بكر محمد بن عاصم (1426 - 1339) بعنوان «حدائق الأزاهر» وهو مصنف عثرت فيه على حكايات متعددة ولجت الأدب الإسباني ، ولأجل الوقوف في حكاية ابن عاصم على صدى محتمل أيضا – وهو شيء بعيد جدا – في مصنف لكاتب إسباني آخر ، وختامها كما نرى يتبع الخط الساخر ذاته للحصري . تعطي الحكاية التي يرويها ابن عاصم في أسلوب سهل جدا انطباعا بأنها منقولة من حكاية شفوية تقول الحكاية :

ورأى رجل مؤذن في صومعته امرأة فأعجبته ، فجعل يكلمها من الصومعة ويشير إليها فشكت ذلك لزوجها ، وكان حجاما فقال لها : إذا طلع الصومعة وأشار عليك وكلمك فأشيري عليه ، ففعلت ، فنزل من الصومعة وجاء إلى بابها فلما دخل عليها جاء زوجها وقد كان ينظر إليه على بعد ، فدخل عليها ، فبادرته المرأة ، وقالت له : إن سيدي المؤذن له مطحنة موجعة ، فانظرها له ، فنظرها ، وقال: لابد من خلعها ، وأخرج ماعونه ، وخلع له مطحنة ، ثم قالت : كانت صحيحة . وإنما المؤلمة غيرها ، ثم خلع له أخرى والمؤذن ساكت ، ثم خرج وهو يظن أن المرأة حاولت عليه لئلا يفتضح مع زوجها ، فلما كان بعد ذلك رآها وكلمها وأشارت إليه ومضى إليها وزوجها ناظر إليه ، فلما دخل فعل معه مثلما فعل أولا ، ثم خرج وجعل يكلمها وتشير عليه ، فدخل إليها وفعل به زوجها مثلما فعل وهو

يظن أن ذلك حيلة من المرأة في ستر ، حتى لم يعد في فمه سن ، ثم شعر أن ذلك كان حيلة عليه ، فطلع يوما للصومعة فرأته المرأة ، فأشارت إليه ، فأشار إلى فمه ، وقـال لها : والله ما بقي فيه سن ، فأي شيء تريدين مني .

في الكتاب اللطيف «دليل تنبيه الغرباء الوافدين على بلاط دون أنطونيـو لينيـان إي بيردوجو» المنشور في سنة 1620 حـين يحكـي دون أنطونيـو للمايـسترو كـوارث فليثيانو ما يشكل قوام القصة والعبرة الأولى ، يدمجها الراوي ليوضح روايته ، لـيس في ذرعي أن أدلل على أن هذه الحكاية هي حكاية المؤذن والزوجة التي ذكرتها آنفا ، بيد أنه في اعتقادي أنها عبارة عن أصل بعيد ، لنـدع الكلمـة لـدون أنطونيـو (وهـو نفسه لينيان إي بيردوجو في رأي مانويل دي ساندوبال) .

عندما حكى لي هذا الفتى المخذول تلك المسألة ، تـذكرت ، وأنـت يـا سـيدي المايسترو تتذكر أيضًا ما حكاه لنا صـديقنا المقـيم في الأحيـاء الراقيـة عـن أن أحـد الحجامين كانت له زوجة شابة وجميلة ، وبـما أن كثـيرين يـذهبون إلى داره ليحلقـوا لحاهم ، كانت زوجته تجلس في شرفة واطئة ، تلـبس ملابـس جديـدة ، تقـوم عـلى عمل منـضدة المحـل ، وبعـض المهـام الأخـرى المتعلقـة بالمهنـة كالنظافـة ، وأواني الحلاقة، بينما هو يصدر بفمه كالصفير . ورجال الكورت يصوبون أعينهم كالسهام نحو المرأة ، ويتوجهون إليها توجه الذباب إلى العسل . ورغم أنهـم حلقـوا لحـاهم بالأمس ، فإنهم يريدون حلقها اليوم ، لكن لم يكد يجلس الـذي يريـد الحلاقـة عـلى الكرسي ، وتوضع عليه الفوطة ، والـصابون عـلى لحيتـه ، والمـوس الأولى لا تكـاد تلامس الصابون ، حتى نهضت المرأة ، وحنـت رأسـها في احـترام كبـير ، ودخلـت منفجرة من الـضحك لرؤيتهـا كيـف أن ذلـك الطـائر وقـع في أول شرك ، وبهـذه الصورة لم يفقدوا أبدا لحي للحلاقة ولا جرحى للحجامة ، ولا يكفي إعطاء تحـذير إلى المخدوعين القادمين إلى الوقوع في الشرك والمكيدة :

كيف تفعل الحيلة فعلها في أحوال هذه الدنيا !!

أكرر أنه من الصعب التدليل على أن حكاية «دليل وتنبيه الغرباء» للينيان إي بيردوجاس هي الصورة النهائية – تقريبا غير معروفة – لحكاية حدائق الأزاهر لابن عاصم ، ولست أحاول أن أقنع أحدا بهذا . فالحلاق وزوجته في حكاية لينيان يقومان بدور هو إلى حد ما الدور في الحكاية العربية ، وإن كان باعث الاتفاق الزوجي هو الربح في حكاية لينيان لا الحماسة في ترك المتغزل منكلا به ، وهو السبب الأساسي – وهو ما حدث على كل حال مع كثيرين ذهبوا إلى المغازلة – في الحكاية العربية (وهو واضح مع أنهما لم يقولاه لنا في أن الحجام استخدمه في الحصول على بعض المكاسب لقيامه بدور غير ضروري في مهنته) .

فالمؤذن – على العكس – اختفى من الرواية القشتالية ، وقام بدوره بعض السذج العابرين بالقرب من الحانوت ، وانبهروا «بالمرأة» وهم الذين – من جانبهم – سقطوا صرعى في أول شرك ، دون أن يوهموا أنفسهم بالطموحات التي ساورت المؤذن ، فضلا عن أن المرأة هي التي تقوم بخداعهم حين يجلسون بين يدي زوجها ، بينما الخداع في الحكاية العربية مسوغ من أجل السخرية ، والتنكيل بالمؤذن الذي شرع في مغازلة زوجة الحجام ، وعلى العكس ، فالأمر في الحكاية الإسبانية عبارة عن «غش» ؛ فإن الحلاق وزوجته هما اللذان ينصبان الشباك لصيد الغافلين ، وبما أنهم كثيرون فإنهما ليسا بحاجة إلى التمويه الذي هو أساس في الحكاية الأولى ، لأنهما يتعاملان مع واحد فقط .

نشير ؛ لختام هذا المقال – إلى أن الحجام (Alfajeme) بعمله المزدوج (حلاقا وخالع أسنان) قد اختير في كل من الحكايتين بشق واحد من مهنته المزدوجة ليناسب العقدة الفنية المرادة .



حكايات عربية في
حديث المائدة لتيمونيدا

Cuentos Arabes en «El Sobremesa»
De Timoneda

Al-Andalus
Vol : XXXIV 1969
Fasc . 2



حكايات عربية في الأدب الإسباني
في كتاب «حديث المائدة» لتيمونيدا

متابعة لهذه السلسلة من المقالات التي أنشرها تباعا في هذه المجلة عن الحكايا العربية التي ولجت الأدب الإسباني ، أخصص هذا المقال لبعض الحكايات التي عثرت عليها بين الكثير الذي نشره الكاتب البلنسي خوان تيمونيدا المتوفي سنة 1583.

معروف جيدا ميل هذا الكاتب اللطيف إلى استخدامه مواد غريبة يعيد صياغتها بطريقة أو بأخرى ، إنه ميل وصل إلى غايته في مصنفه المشهور «الخرافات» ، أما المصادر التي اقتبس منها خرافاته المتباينة فقد تناولها الباحثون في سلسلة من الأبحاث ، ووجد الموضوع اهتماما كبيرا في كتاب مييندث بيلايو «أصول القصة» ، وخصص المستشرق الإيطالي الكبير : E. CERULLI منذ سنوات قليلة خلت دراسة ذات أهمية كبرى لهذا العمل ذاته .

لديّ حكايات متعددة قيدتها من مصنفات تيمونيدا ، وهي ذات أصل عربي محتمل ، في هذا الصدد أحدد نفسي في دراسة بعضها القليل والوارد في كتابه حديث المائدة وراحة المسافرين الذي نعرف طبعة سرقسطة في سنة 1563 ، والتي ليست الطبعة الأولى له على وجه الاحتمال ، وقد اخترت من هذه الطبعة إحدى الحكايا ودرست أصلها العربي كذلك ، ويمكن العثور على النص أيضًا لدى خوان دي بينيدو ، وعند ميلتشور دي سانتاكروث دي دوينياس .

أي باب تقرعه فلا يردون عليك :

الحكاية رقم 26 من القسم الثاني من كتاب حديث المائدة وراحة المسافرين موجودة بين طائفة الحكايا «التي تبدأ من رقم 34 في طبعة مكتبة المؤلفين الإسبان حتى النهاية» وكل حكاية منها تتضمن تصريحا بقول أو حديث مأثور ، تبدأ كلها بجملة : لماذا يقال ..؟ . وهذه الحكاية مقتضبة إلى حد بعيد ، وهي إحدى حكايا تيمونيدا التي توضح أن مؤلفها لم يكن لديه أي تحفظ في تضمين مصنفه أية حكاية كانت قذرة أو متدلية ما كانت تبدو له جذابة بما فيه الكفاية . تقول الحكاية ما يلي :

لماذا يقال : أي باب تقرعه فلا يردون عليك .

«كان مهرج يرتقي السلم أمام أحد الملوك ، فتوقف المهرج ليشد رباط حذائه ، فاضطر الملك إلى أن يضربه بيده على إسته لكي يمضي قدما ، فضرط المهرج (بسبب الضربة) فقال له الملك : ويلك! ، فرد عليه المهرج : أي باب تقرعه فلا يردون عليك؟» .

إنها حكاية شديدة الذيوع حتى اليوم ما زالوا يقصونها وقد سمعتها بنفسي وأنا في طراءة السن ، في صيغتها تيك الشفوية كان المهرج هو كيبيدو ، وكان الملك هو «الملك» دون تحديد اسمه . وقد أخذ تلك الحكاية - بلاريب - جونثالو كورّياس في معجمه ، بهذه الصيغة الآتية :

أي باب تقرعه فلا يردون عليك ؟

بينما كان مهرج يرتقي السلم أمام أحد السادة ، فتوقف المهرج كي يخلع نعليه ، فضربه السيد على إسته ليتقدم ، فضرط ، فغضب منه لسوء أدبه ، فأجابه المهرج : أي باب تقرعه فلا يردون عليك .

لقد عثرت على مصدر واضح لهذه الحكاية في مصنف ألفه الأديب الوزير الغرناطي ابن عاصم (المتوفي سنة 1426) بعنوان كتاب حدائق الأزهار (الأزاهر في

رواية أخرى ، وهي أدق) وهو كتاب وجدت فيه أيضًا أصولا لحكايات إسبانية أخرى ، رواية ابن عاصم كما يلي :

> وقعد المتوكل يوما ، فطرب عبادة من صوت لبعض المغنين ، فقام ورقص ، فسر المتوكل برقصه ، وقرب عبادة من مقعده ، فلما جلس ضرب المتوكل بيده على إست عبادة فضرط ، فقال له : ويلك ، ما هذا؟ فقال : يا سيدي أيجوز لمثلك أن ينقر على قوم فلا يكلمونه؟ .

كلتا الشخصيتين هنا : الخليفة المتوكل العباسي (861 – 882) ونديمه عبادة اللوطي المعروف الذي تحكي عنه روايات كثيرة في الأدب العربي المشرقي وعبرت تلك الروايات إلى الأدب الغربي ، وفي مثل هذا الصدد المحدد إلى الأدب الأندلسي .

ليس ثمة ريب – فيما أظن – في أن الأمر عبارة عن أصل واضح ، خفيت فيه – بطبيعة الحال – أسماء شخوص الحكاية لكن ظلت باعتبارها – الملك (أو السيد) والمهرج في صيغتها الإسبانية . وإن كانت الظروف والمشهد فيهما اختلاف إلا أنه بقى في النكتة الإسبانية ما هو جوهري في الحدث ، وجملة المهرج الأخيرة التي تحولت إلى مثل سائر حسب ما يرى تيمونيدا وكورّياس .

للقسيس الصالح راع خير منه :

الحكاية رقم 58 في القسم الثاني من حديث المائدة وراحة المسافرين الواقعة تحت عنوان : لماذا يقال :

تقول ما يلي : بينما كان يأكل في إحدى الضياع ALDEA قسيس حماما مشويا ، رجاه أحد العابرين أن يدعه يأكل معه ، ويدفع قيمة ما يأكله ، فلم يقبل القسيس ،

فأنشأ العابر يأكل خبزه دون إدام ثم قال له : هل تعلم يا صاحب الفضيلة أنك أكلت بالمذاق ، وأنا أكلت على الرائحة ، فكلانا أكل الحمام ، رغم أنك لم ترد . فرد عليه القسيس إذا كان الأمر هكذا فإنني أريد أن تدفع لي ما أكلته من الحمام ، فرفض الثاني ، وألح الأول ، فتحاكما إلى راعي كنيسة الضيعة الذي كان حاضرا ، فسأل القسيس ماذا كلفك الحمام ، فأجابه نصف ريال ، فأمر العابر أن يخرج قطعة نقود ، أخذها منه راعي الكنيسة ، ونقر بها على سطح المائدة ثم قال : سيدي القسيس لقد أخذت حسابك رنينا مثلما أكل هو رائحة . فقال حينئذ صاحب الخان للاثنين : للقسيس الصالح راعٍ خير منه» .

ويقص أيضًا صيغة أخرى شديدة المشاكهة لتيك : جونثالو كورّياس في معجمه؛ تفسيرا للمثل ذاته ، يقول ما يلي :

«كان أحد القساوسة يأكل حماما في خان ، فرجاه أحد العابرين أن يأكل معه ويدفع نصيبه ، فاعتذر القسيس ، فأكل العابر خبزه ، ثم قال له : لقد طعمت جيدا على الرائحة مثلما أكلت أنت مذاقا ، فقال له القسيس ؛ إن كان الأمر هكذا فادفع لي حساب ما أكلت ، فرفض العابر ، وأصر القسيس ، فتحاكما إلى راعي الكنيسة في المحلة التي كانا بها ، وكان الراعي حاضرا هنالك . فسأله فعرف أن الحمام كلفه نصف ريال ، فطلب من العابر أن يخرج قطعة نقود ، ورن بها على ظهر المائدة ، وقال : سيدي القسيس لقد دفع لك حسابك رنينا ، مثلما استمرأ هو رائحة» .

كلتا الروايتان من الممكن أن تعزوا إلى رواية تقليدية يأخذها حتى الآن كتاب إسبان آخرون ، فرواية برناردينو فرنانداث دي بيلاسكو إي بيمنتيل دوقي دي فيرياس الموجودة في كتابه «لذة العقل» تعرضت لبعض تحويرات ، وإن كان الغرض الأساسي مسلما به تماما ، لقد اختفى القسيس ، وراعي الكنيسة الذي قام بدور القاضي ، هو الآن قاضٍ حقيقي . إن صاحب الخان ذاته هو الذي طالب بدفع

ما لم يأكله الرجل الآخر «الرجل المسكين» (الذي لم يحاول الأكل بأي طريقة في هاته الرواية) ، وينتهي المثل بما أملاه مجنون بعبارات تشاكه ما قاله راعي الكنيسة في الروايات السالفة . وبما أنه من الطبيعي اختفاء كلتا الشخصيتين فقد اختفى أيضًا المثل المفترض ، ونسوق هنا الرواية كما رواها دوقي دي فيرياس بعنوان جانبي «مثل لأحد المجانين» :

جاء رجل فقير يشكو إلى أحد القضاة من أن صاحب خان حيث بات عنده ذات ليلة أخذ منه ستة ريالات ؛ لأنه سخّن قليلا من الخبز في مطبخه على رائحة فخذ خروف كان يشويه فأمر القاضي بإحضار صاحب الخان ، وفيما هو يبحث القضية إذا بمجنون – على مقربة منه – صاحب بدوات من الفطنة ، فيطلب منه القاضي حل المشكلة ، فيجيبه : سأصنع ذلك ، فالأمر في غاية البساطة : على هذا الرجل أن يفرغ كيسه أمام صاحب الخان ، وليتركه يمتع حاسة شمه بصوت الدراهم ، ثم يضمها إلى كيسه بعد ذلك ، وبهذا يدفع لقاء رائحة شواء الخروف ، وهكذا كان .

من رواية دوقي دي فيرياس اشتقت – بلا ريب – رواية الأيكة الإسبانية من تأليف فرانسسكو أسينسيو ، وهي أكثر وجازة من سابقتها حيث يلاحظ تحوير مهم لم يكن من الضروري الإشارة إليه وهذه هي حكاية أيكة أسينسيو :

أتعب صاحب خان رجلا فقيرا لأن الثاني سخّن كسرة خبز في مطبخ الأول على قتير فخذ خروف كان يشويه ، مطالبًا إياه بدفع مبلغ ما نظير ما أفاده من فخذ الخروف ، فحكم عليه مجنون أن يفرغ كيسه أمام صاحب الخان ، ثم يجمع دراهمه فيه فيما بعد ، قائلا إن قتير الخروف يدفع نظيره طنين الدراهم ، وهكذا تحل القضية بين كليهما .

يظهر هنا فقط ثلاثة الأشخاص – الـذين هـم في الروايـة الأساسـية – في أدوار متباينة : القسيس أو الكاهن هو هنا صاحب الخان ، والعابر هـو هنـا رجـل فقـير ، وراعي الكنيسة هو هنا مجنون أي كما في رواية دوقي دي فريـاس ، بيـد أن القـاضي اختفى في رواية الأيكة ، كما تلاشى الحوار تماما .

سيأتي الآن أبو بكر بن عاصم الذي أشرنا إليه آنفا ليمد إلينا يد العون ، في كتابه حدائق الأزاهر – الذي أترجم منه طائفة من الحكايا وأود نشرها ذات يوم – حكاية قصيرة هي ذاتها – تماما – التي نتحدث عنها الآن ، وإن كانت بسيطة جدا ، تقول ما يلي :

> ووقف رجل على طباخ ، فأكل خبـزه برائحـة القـدر ، فـدعاه إلى الحاكم وعرّفـه بفعلـه . فقـال لـه الحـاكم : اضرب بـدرهم عـلى رخامته، يأخذ طنينه ، ورد إليك درهمك .

في حكاية ابن عاصم – وهي احتمالا أشد قدامة ؛ لأنها موجودة في كل صـنوف الكتب المشرقية – ما هو جوهري في الموضـوع الـذي نحـن بـصدده ، وهـي بدقـة تقارب روايتي القرن الثامن عشر أكثر من مقاربتها الروايات القديمة ، الشخصيات هنا : الطباخ (يناظر في دوره وفي وظيفته صاحب الخان لدى دوقي دي فيريـاس) ، والفقير ، والقاضي الذي يلقي بفصل الخطاب بكل منطقية .

لست على يقين – كما هو الحال في حكايات أخر درستها ونشرتها – من أن حكاية ابن عاصم هي مصدر الحكاية الإسبانية بالضرورة ، أعتقد ببساطة أن الأمر عبارة عن حكاية شعبية ولجت الأدب الإسباني بطريق الرواية الشفوية ، وفي الواقع فإن الحكاية العربية بأسلوبها ولغتها أكثر شعبية من أي واحدة من الحكايات الإسبانية الأربع التي أعرفها (ثمة أكثر منها بلا ريب) ، لست أدري هل هذه الحكاية ولجت آدابـا أخـرى ،

أو قدمت من آداب أخرى ، الذي أدريه أن الحكاية شـديدة التوغـل في تقنيـة النـوادر العربية ، وأيضًا طريقة المثل (على نمط سليمان الحكيم) توجد بكثرة في نـوادر أخـرى في الأدب العربي ، سأدلي هنا بنموذجين تحـت يـدي دون أن أخـرج مـن كتـاب ابـن عاصم ، مستغنيا عن نصهما العربي ، موردا إياهما في إيجاز :

تقول الحكاية الأولى :

> وجاء رجل إلى حاكم برجل وقـال : هـذا احـتلم بـأمي في النوم فقال الحاكم يقام للشمس ويضرب ظله .

والحكاية الثانية من الضرب ذاته (أعتذر عن ذكر كلتيهما) تقول ما يلي :

> وكان رجل يهوى امرأة فرآها في النوم ، وأمكنته من نفسها، فأخبرها بذلك فرفعته إلى الحاكم وقالت له إنه نـال منـي في المنام ما أراد فليدفع إلى حقي ، فقال لـه الحـاكم : ادفـع لهـا دينارا ، فقال الرجل وكيف أدفع لها دينارا ولم أنل منها شيئا إلا في المنام ، فقال الحاكم لابد من ذلك ، فـدفع لهـا دينـارا وانصرفا فلما جاوزت المرأة الباب قال الحاكم ارجعـي إليّ ، فلما رجعت أخذ منهـا الـدينار ودفعـه إلى صـاحبه ، وقـال للمرأة اذهبي فقد نلت منه مقدار ما نال منك .

لأنكم تشترون بثمن بخس ؟

الحكاية رقم 70 من القسم الثاني من حديث المائدة لتيمونيدا فيها كـل مقومـات الحكاية الشعبية ، لا أعرف رواية قشتالية أخرى قديمة لهذه القضية ، ولم أعثر عليها في آداب أخرى إلا في عملـين اثنـين (في روايـات متباينـة فـيما بينهـا لـدى مـؤلفين عربيين.

لنتعرف أولا على حكاية تيمونيدا :

لماذا يقال : لأنكم تشترون بثمن بخس ؟

كان لتاجر ولد مسرف وكان يسرق من دار أبيه كل ما يقدر عليه ، فقال له الأب ذات يوم زاجرا : ولدي بما أنك تبيع للآخرين ما تأخذه من الدار بثمن بخس ، فلماذا لا تبيعني إياه ، فأجابه الابن : إذن يا أبي اعمل حساب هاته الدنان النحاسية التي سرقتها منك ، فكم تعطيني مقابلها ؟ فقال له الأب : خذ مقابلها خمسة ريالات ، فأجابه الابن : أعطني إياها لكني من الآن فصاعدا أعدك بألا أبيع لك أي شيء ، لأنك تشتري بثمن زهيد .

عرفت منذ أمد حكاية تعزي إلى الخليفة المأمون العباسي (786 – 833) لوجودها في المنتخبات المعروفة مجاني الأدب للأب شيخو ، مأخوذة من الإتليدي دون إشارة إلى المصدر ، لم يكن من العسير عليَّ – في كل الأحوال – أن أعثر على الحكاية في أحد مصنفات المؤلف (الذي سأعود إليه فيما بعد) بعنوان كتاب إعلام الناس بما وقع للبرامكة من بني العباس ، وهو يقدم تحويرا جوهريا بالنسبة لنص مجاني الأدب . يقول نص الإتليدي :

> ومن حلمه أيضًا أنه كان له خادم يسرق طاساته التي يتوضأ فيها ، فقال له المأمون : إذا سرقت شيئا فائتني بما تسرقه فأشتريه منك ، فقال له الخادم : اشتر مني هذا وأشار إلى التي بين يديه ، فقال : بكم ؟ قال : بدينارين ، قال : على شرط أنك لا تسرقها ، قال : نعم ، فأعطاه دينارين فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئا لما رأى من حلمه . والله أعلم .

الحكاية على كل الوجوه قليلة الاحتمال في تصديقها ؛ لأنه غير معقول أن نفكر أن الخادم في هذا الظرف لم يكن بين يديه أشياء أكثر نفاسة وأضأل وزنا لكي يسرقها، فالانطباع الذي توحي به هاته الرواية المظنونة أنها قصة مستعملة بطريقة

ناقصة ، وبصورة المصادفة ؛ لتشي بمثالية حلم الخليفة المأمون ، هذا الحلم الذي ترجمه بكلمة INDULGENCIA ، وهي تحوي طائفة من ملامح المزاج والعمل الخلقي التي تنبع من العدالة الوازعة ، والاعتدال إلى أقصاه ، والحلم ، مرورا بضبط النفس ، والعمل المجيد . لقد قلنا إن الحكاية ذاتها - مع تحويرات يسيرة - قد أخذها الأب شيخو في كتابه مجاني الأدب ، الذي غيّر - فيما أعتقد - نص الإتليدي، وقد ربح النص في الرواية الجديدة ، وإن فاءت فضائل الخليفة العباسي وتديّنه بأبخس الأنصباء ؛ لأنه - وفقا للرواية الجديدة التي لا يهم نقلها ولا ترجمتها كاملة - كان الخادم يسرق من المأمون «طاساته التي يشرب فيها» ، لا طاساته التي يتوضأ فيها ، وبهذا التغيير تكون الرواية أكثر قبولا ، إلا أنه يشوه صورة الخليفة ، وليس الحلم هنا هو الذي يتعرض للتشويه بل إنه يبطل دأبه على الوضوء ، ويشهّر بولعه بالشراب ، الذي عرف به وأفرط فيه ، بيد أنه لم يكن في نية الراوي أن يدلي به.

وبمقارنة حكاية الإتليدي بحكاية تيمونيدا يبدو واضحا أن الموضوع واحد ، فضحايا السرقة في كلتا الروايتين الذين يتغاضون عما يحدث - يصلون إلى أن يعرضوا على سارقيهم أن يشتروا الأشياء التي سوف يسرقونها في المستقبل (دائما هي الأشياء ذاتها في الحكاية العربية ، دون تخصيص في الحكاية الإسبانية وإن كان مفهوما أن ثمة اختلافا) كل من السارقين يقبل في تهتك الصفقة ، وفي بذاءة يساوم في الحال على ثمن الأشياء التي في نيته أن يسرقها ، في الحكاية العربية يحدد الخليفة الثمن ، ويقبل الخادم الثمن دون استدراكات عليه ، وتصنع حركة الخليفة هذه صنيعها في أن يندم الخادم ويهتدي إلى سواء الصراط إلى الأبد ، فطبيعة الحلم لدى ضحايا السارقين المتمرسين ضخمة في الحكاية العربية - حكاية الإتليدي - إنه الخليفة في مواجهة الخادم ، وفي حكاية تيمونيدا الأب في مواجهة الابن . فالشعور الأخلاقي - في كل حال - حسب ما حكاه الإتليدي - يأخذ ميلا لا شبهة فيه نحو الفكاهة النافذة عندما أعاد صياغتها خوان تيمونيدا . ففي الرواية الجديدة - في

هاته الصفقة النادرة لم يضعوا شروطا – الابن هو الذي يطلب الثمن ، والأب هو الذي يحدد ويدفع للابن الذي لم يخف امتعاضه فيعده بألا يعود إلى التعاقد معه مرة أخرى، مخبرا إياه أنه سيستمر في سرقته .

هاته النهاية في حديث المائدة تضفي على الموضوع أملوحة ليست في الحكاية العربية ، وتحولها إلى رواية توجب العبرة بنادرتها الرائعة .

بهذه التحويرات المشار إليها – لست أدري هل تستحق أن أحللها في رواية بهذه البساطة – يبدو واضحا أن الحكاية العربية من الممكن أن تكون أصلا بعيدا – على وجه التقريب – لتيمونيدا ، والآن فإن الصعوبة الأساسية ترتكز – على وجه الدقة – على أن مؤلف كتاب إعلام الناس (محمد دياب الإتليدي حرر كتابه سنة 1100 هـ (1688 م) أي بعد أكثر من قرن من موت تيمونيدا وأن كتاب حديث المائدة قد طبع ما يناهز عشر مرات ، وبما أن المصنَّف العربي يكون عادة شريحة من مكعبات فسيفساء عريقة القدم ، فإن هذا لا يمنع – كما هو المنطق – من وجود نظرية مناقضة بمعنى أن تيمونيدا كان المصدر البعيد للإتليدي فيما يخص حكايتنا .

ولحسن الحظ وقعت على رواية عربية أخرى أكثر شعبية لهذا الموضوع حاشا النتيجة الأخيرة التي تتفق أكثر مع حكاية تيمونيدا منها إلى حكاية المأمون المصنوعة. هذه الرواية الجديدة جمعها ابن عاصم في كتابه حدائق الأزاهر الذي أومأنا إليه مرارا تقول الحكاية :

> وكان لرجل ابن يسرق له كل يوم حاجة ويبيعها بأبخس ثمن ، وينفقه في الفساد ، فعاتبه يوما وقال له : ليتك إذا سرقت الحاجة كنت تبيعها مني . فقال له : فاشتر مني إذًا تلك المنارة فإني إنما جئت لأسرقها وأشار إليه منارة أمامه .

في هاته الحكاية – كما نرى – اختفت تماما صورة المأمون الجليلة (أعتقد أن الرواية التي أخذها الإتليدي قديمة جدا ، وتفرعت عنها رواية الحدائق ، ربما أعاد صياغتها ابن عاصم نفسه) الحكاية هنا أب وابن مثلما هي لدى حديث المائدة . في رواية الإتليدي ليس ثمة زجر من قبل المضارّ ، وفي الروايتين الإسبانيتين (الغرناطي والبلنسي) يؤنب الأب ولده ، وفي كلتيهما يعرض عليه أن يشتري منه الأشياء المسروقة التي يبيعها لغيره ، وفي كلتيهما يعرض الابن للبيع شيئا لمّا يسرقه بعد : «اشتر مني إذن هذه المنارة فإنما جئت لأسرقها» = «اعمل حساب هذه الدنان النحاسية التي سرقتها ، فكم تعطيني مقابلها» . يرتكز الخلاف هنا في أن الحكاية العربية تنتهي عند هذا الحد ، وفي الإسبانية يستمر الحوار اللازم ليقدم حلا ختاميا يعد الابن فيه بعدم تخليه عن السرقة (كما هو الحال في رواية الإتليدي) وبألا يعود فيبيعه ما يسرقه ، في عبارة صاغها تيمونيدا مثلا سائرا : «لأنكم تشترون بثمن بخس» .

هاته الخاتمة – بلا ريب – هي محصول تيمونيدا ، لست أعرف – كما قلت آنفا – رواية قشتالية أخرى أقدم من هذه الرواية ، وإن كان يوجد بلا شك . عثرت – على العكس – عليه ضمن مؤلف نشره منجّما منذ أكثر بقليل من قرن مانويل ديل بالاثيو، ولويس ريبيرا بعنوان المتحف الفكاهي أو ذخيرة النكات . ومؤلفا هذه المجموعة اللذان يسطوان على مؤلفات «الأيكة» و«الأساطير» يحتفظان أحيانا بالروايات القديمة ، ويجددانها قليلا في أحيان أخر ، أو يعيدان تحريرها تماما ، وتفقد الرواية شيئا كثيرا ما كان التنقيح كثيرا ، ولا يذكران المصادر إطلاقا حتى ولو بطريقة عامة في البيان الذي يتصدر مؤلفهما . حكاية تيمونيدا التي نحن بصدد الحديث عنها ، والتي لم يصبها التحوير كثيرا تظهر في الشكل التالي :

> كان لأحد التجار ولد يسرق منه كل ما لديه ، ولم يجد وسيلة لإصلاح رداءته فحاول مصالحته والوصول إلى اتفاق معه .

– قال له الأب ذات يوم : اسمع يا خوان : بما أنك تبيع الآخرين ما تسرقه مني بثمن بخس ، فلماذا لا تبيعني إياه ؟

– حسنا : إذن اعمل حساب قطعة القماش هذه والتي سرقتها منك . فكم تعطيني مقابلها ؟

– عشرين درهما ، فخذها .

– ناولني إياها ، بيد أني أعدك ألا أعود فأبيع لك أي شيء ، لأنك تشتري بثمن زهيد .

لست أدري هل من هذه الرواية أو من حديث المائدة مباشرة ، أو ربما من رواية أخرى لا أعرفها ، وإن كنت متأكدا من وجودها ، أو ببساطة بوصفها حكاية تقليدية جُمعت مع رصيفاتها – ما عثرت عليه في منتخبات النوادر الأراغونية . الحكاية التي بقيت موجزة في حوار خالص تقول ما يلي :

عمل مربح :

– انظر يا ولدي . هذا القمح الذي تسرقه مني ، وتبيعه هناك بدراهم معدودة، بعه لي . وأربحك فيه .

– كم تعطيني إذن مقابل قفيز (CAIZ) (*) قد نحيته جانبا .

خمسة دراهم .

حسنا . هاتها . إنها المرة الأخيرة ، فإني لن أعقد معك أية صفقة ، فإنك تشتري بثمن بخس .

(*) هذه اللفظة مأخوذة من الأصل العربي «قفيز» .



حكايـــات عــربيـــة
في الأيكـة الإسـبانيــة
للتشور دي سانتاكروث

Cuentos Arabes en la
"Floresta espanola"
De Melchor de Santa Cruz

Al-Andalus
Vol : XXXV 1970
Fasc . 2



حكايات عربية في الأيكة الإسبانية
لملتشور دي سانتاكروث

تحدثت في مقالات سابقة عـن حكايـات في الأدب العـربي ، موجـودة أيـضًا في الأدب الإسباني ، من بينها حكايات جمعها ملتشور دي سـانتاكروث دي دوينيـاس في كتابة الممتع «الأيكة الإسبانية» .

قام بدراسة مهمـة ، لم تفقـد أهميتهـا حتـى الآن ، لهـذا الكتـاب دون مـارثيلينو مينندث بيلايو في كتابه أصول القصة . أما المناسبة التي أفرغ فيها كل جهـده بعمـق فقد كانت لدى نشر سلسلة مجموعة المولعين بالكتب الإسبانية ، إذ نـشرت الأيكـة نشرة جيدة بعناية : بينيتيث كلاروس الذي لم يتدخل في تخطيط الناشر الـذي حـدد جهده في التركيز على الأهمية الكـبرى لدراسـة المـصادر ، والـسبل لكـل قـول مـن الأقوال المأثورة ، والصعوبات لتحقيق تلك المسألة .

لقد جمع الأستاذ المتكاسل البيانات الأولية حول الـسبيل المعروفـة للحكايـات التي درست ، معطيا في بعض المناسبات بيانـات بيليوجرافيـة مـوجزة ، مـستقاة في بعض الأحيان من قـراءة الحكايـات مبـاشرة . ولا يـصل عـدد الحكايـات المعـزوة لأصلها في شيء من الدقة إلى الأربع والعشرين مما يبين لنـا بوضـوح – أمـام مئـات الحكايات التي تؤلف الكتاب – أن العمل المهم لم يزل في بدايته .

القائمة الموجزة للحكايات التي في الأيكة ذات الأصل العربي – والتي نتوقع لها ذلك الأصل دون الأصول الأخرى – وقد عرّفت بها من قبـل «التينـات الـثلاث ،

حكايات عربية في الأيكة الإسبانية

إذن يبكون ، إلى أين نرحل» أضيف اليوم مجموعة أخرى أدرسها حسب ورودها في الكتاب ، منها ثلاث ، نسبتها لا يحوم حولها شك أبدا ؛ هي مثل حكايات أخرى سبق أن درستها ، وهي في الواقع ترجمة مباشرة ، أو بتعبير آخر نسخة طبق الأصل من حكايات عربية ، أما عن الحكايتين الأخريين ، فالأولى والرابعة دار حولها جدل كثير ، إذن أدع الطريق مفتوحا لمن يدلي بدلوه ، وبمعلومات أوسع ، في ذرعه أن يصحح ما قلت .

ما زال في الأيكة حكايات عربية أكثر ، أتذكر أنني قرأتها منذ سنوات خلت في كتب ليست في متناول يدي الآن ، وتطل برأسها ذات يوم بطريق المصادفة في قراءات جديدة أو في قراءة معادة ، الطريق ليس سهلا ، ويقتضي وقتا طويلا ليس مهيئاً لدي الآن ، ولست قانطا من متابعة البحث ، والعثور عليها .

بين يدي حكاية أخرى ، وهي ذات أهمية قصوى بالنسبة لي ، لكنها مدججة بالمشكلات ؛ لأنها – بالرغم من تاريخها الطويل في الأدب الإسباني قبل الأيكة وبعدها – موجودة في آداب أوربية أخرى ، كلاسيكية وحديثة ، وهي أيضًا موجودة في الأدب العربي منذ أمد سحيق . ولدراسة هذه الحكاية سأخصص قريبا مقالا جديدا .

لنلج الآن الحقل الوارف والمبهج بحق : حقل الأيكة الإسبانية :

حساب الجائع :

يضم الجزء الرابع من الأيكة ، وفي الفصل الثامن «عن الطلاب» نكتة تحمل رقم 8 ، أقصر ما تضم المجموعة كلها :

سأل عريف تلميذا : كم عدد بنات عمك ، أجابه باللاتينية : أربع صحاف ، كل واحدة ذات مذاق لذيذ .

ليس بين الحكايات التي أدسها في هذا المقال ما في هذا المضمون من لوذعية شديدة ، ولا يبدو إمكان إبداعه خارج الحقبة التي جمعه فيها ملتشور دي سانتاكروث . ودون زعم أي شيء آخر من جانبي سأقدم فيما يلي نكات عربية عديدة ، متشابهة في وجازتها وفي مقصدها ، في الذرع أن تكون أصلا لتلك النكتة .

بعضها في كتاب الأذكياء لأبي الفرج بن الجوزي ، ذي التصانيف العديدة ، المولود في بغداد سنة 510 / 1116 ، وتوفي في المدينة ذاتها سنة 597 / 1200 . لنر الأولى :

قال الجاحظ : قلت لأبي سعد الطفيلي : كم أربعة في أربعة ؟ قال : رغيفين ، وقطعة لحم .

وعلى التوالي نجد نكتة أخرى على المنوال ذاته .

وقال المبرد : قيل لطفيلي : كم اثنين في اثنين ؟ فقال أربعة أرغفة .

تقفو هذه النكتة نكتة أخرى بها تغيير طفيف عن سابقتها :

قال أبو هفان : قيل لطفيلي : كم أربعة في أربعة ؟ قال : ستة عشر رغيفا .

كما هو بين ، فإن النكتة قد ذاعت - الأمر الواضح جدا داخل الإطار الاجتماعي - وإن ابن الجوزي لم يصنع شيئا سوى جمعه ثلاث روايات للنكتة ذاتها ، فالطفيلي الذي عضه الجوع يستخدم كل صنوف الحيل كي يسد جوعه ، حيلة جيدة تمنحه دائما نتيجة طيبة : إنها جملة ذكية .

إذا صدقنا ابن الجوزي ، فإن الروايات منسوبة إلى شخصيات في قامة الجاحظ أديب البصرة الكبير (160 / 776 – 225 / 868) صاحب المؤلفات الأدبية العديدة ، وفي قامة المبرد أحد كبار النحاة في مدرسة البصرة (210 / 825 – 285 / 898) وفي قامة أبي هفان المحزمي صاحب الكتاب المعروف «أخبار أبي نواس» وهو أيضًا

مشرقي ، (توفي في تاريخ غير محدد ، يدور – كما يقول المؤرخون حول عام 190 / 809 ، 257 ، 810 / 870) .

وعلى أية حال ، فبعض النكات من النمط ذاته كانت معروفة في المغرب الإسلامي ، على الأقل قبل قرنين من موت ابن الجوزي ، فالحصري القيرواني في كتابه الجواهر الذي أشرت إليه أكثر من مرة في مقالات سابقة ، وتوفي سنة 1022 ، ضم النكتة التالية منسوبة إلى أشعب :

وقيل لأشعب : كم كان أصحاب النبي ﷺ يوم بدر ، قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر رطلا .

لا يحدد أي نوع من الأرطال ARRELDE «الرطل» لكن من الواضح أنه يعني شيئا مأكولا ومن المظنون أن الرواية الأولية توضح نوع الطعام ، والذي حذف عند تقييد الرواية لتخفيف الصورة غير اللائقة للنكتة في عيون المسلمين .

وبعد تلك النكتة يذكر الحصري أيضًا نكتة من كتاب الأذكياء لابن الجوزي ، وقد ذكرناها آنفا ، هي الحكاية المنسوبة إلى المبرد (2 × 2 = 4 أرغفة) ، وإن كان الحصري لم يذكر لغوى البصرة المشهور . وبالمناسبة فمن المعلوم أنها مثل النكتة السابقة ، يحكيها هكذا : «تلك [النكتة التي فرغت توا من حكايتها] مثل حكاية الطفيلي الذي سألوه [وهذا كما قيل لطفيلي] كم اثنين في اثنين ، فأجابهم : أربعة أرغفة .

في كل هذه النكات العربية ، يخرج المسئول – فيما يتضح – عن الموضوع في إجابته، لعله يريد أن يقدم لنا العقدة لفهم ظروفه البائسة باعتباره طفيليًّا جائعا ، وفي حكاية الأيكة يحدث شيء مماثل : ففيها البطل طالب جائع أيضًا ، وأيضًا صعلوك (كما هو الطفيلي في حقيقته) وتأتي إجابته مشابهة «هي هي» ، لا يعني

مسائل الحساب (في موقفه) المطروحة ، بل إنها سؤال (بلا شك في الامتحان) منطقي ، أجيب عليه (إلى حد كبير بالمنطقية الممكنة) لأن البائس محاصر بالأزمة الفظيعة لمقاومة الجوع الذي يعضه ، ذلك العدو الذي لا يقاوم لكل معاصريه تقريبا، وهو تلك الشخصية التي تلعب دائما دورا مهما في كل قصص الصعاليك .

يبدو لي أن حكاية سانتاكروث تحمل في إتقان كل خصائص العصر الذهبي ، في كل الحكايات العربية التي جرى الحديث عنها .

كيف مات أبوك ؟

في الفصل الثامن من القسم السابع الذي عنوانه «حديث المائدة» يقص علينا سانتاكروث تلك الحكاية (رقم 5) :

جلس صاحبان يأكلان ديكا مشويا ، سأل أحدهما صاحبه : ماذا حدث لأبيك؟ فأخذ الآخر يقص في تؤدة كيف مات ، وسبب موته ، وفي أي مكان ، وكل الملابسات التي صاحبت موته ، وبينما يقص صاحبنا كيف مات أبوه ، أكل صاحبه معظم الديك الذي كان قد شرع في التهامه ، فسأله صاحبنا : وأنت كيف مات أبوك؟ فإنني قد قصصت عليك حكاية موت أبي ، فأجابه صاحبه : مات بغتة .

في جمع الجواهر للحصري الذي ذكرته آنفا ، عثرت على حكاية مشابهة ، أعطاه الناشر عنوان «يشغله عن الأكل» تقول ما يلي :

قعد عبادي وأعرابي يأكلان ، فقال العبادي للأعرابي : كيف مات أبوك ، ليشغله بالكلام عن الأكل ، فقال : أصابه كذا وكذا ، فأخذ في حديث طويل ، والعبادي يأكل ، ثم قال الأعرابي : وأنت كيف مات أبوك ليشغله بالكلام عن الأكل! ، قال : أتخم ، فمات .

يبدو لي واضحا أن النكتة هي ذاتها ، وإن كان ثمة تغيير طفيف في الفحوى ، وعند تصحيح التجارب عثرت على مذكرة كانت شاردة عني ، وتشير إلى «ألف حكاية وحكاية» لباسيه ، الذي ترجم هذه الحكاية ، ليس بطريق مباشر من جمع الجواهر ، بل من القواعد الأولية للغة العربية لدوراند ، وشيخو .

الأعور الذي أصابه العمى :

القسم الثامن من الأيكة مخصص لحكايات أبطالها مشوهون خلقيا ، والفصل الأول بعنوان «عن العميان» الذي اتسع للعور والحول ، يضم الحكاية التالية (رقم 5):

طعن رجل برتغالي أعور بنشابة ، فأصابت عينه الصحيحة ، وحين عمى ، قال لبعض الفرسان الذين معه : مسيتم بالخير ، يا صحاب .

تعبير «مسيتم بالخير» شرحه المايسترو جونثالو كورياس في الجمل التي يحويها كتابة القيم «المعجم» بهذه الصورة :

مسيتم بالخير :

يقال حين ينطفئ النور ، أو الشمعة ، وحين يعم الظلام ، وحين يودع صاحب صاحبه في المساء ، أو حين [يفقد أحدهم نور عينيه] أو حين يخسر صفقة ، فيقال : مسيتم بالخير .

لقد وضعت قوسا على جملة «يفقد نور عينيه» وهي الحالة المأسوية للبرتغالي ، لدى سانتاكروث ، التي عبر عنها متحديا ، وأمسى بالخير صيغة خطرت لهذا المبتلى ، ودون أن يفقد حماسته .

لا أعرف لهذه الحكاية روايات إسبانية أخرى في الحقبة ، بيد أني عثرت عليها في القرن الثامن عشر في «الأيكة الإسبانية» الأخرى لفرانسسكو أسنيسيو ، الذي وضع لمسات كثيرة للفحوى ، وكما هو منطقي ، فإنه أخذها من ملتشور دي سانتاكروث .

حكايات عربية في الأيكة الإسبانية

في القسم الخامس في القسم الثالث ، الحكاية الأولى من الفصل السابع بعنوان «عن اللعب» تقول ما يلي :

كان رجل أعور يلعب بالكرة ، فرموا الكرة ، فأصابت عينه الصحيحة ، وحين عمى ، قال لأصحابه اللاعبين معه : مسيتم بالخير يا صحاب .

استطعت العثور على روايات عربية متعددة لهذه الحكاية جمعتها من مصنفات أدبية من حقبة باكرة إلى حد ما ، أقدم هذه الروايات لكاتب إسباني ، هو على وجه التحديد الشاعر المعروف ابن عبد ربه (توفي سنة 328 / 940) شاعر خليفتنا الأول . يقص الحكاية في كتابه العقد بهذه الصورة :

أبو حاتم قال : رمى رجل أعور بنشابة ، فأصابت عينه الصحيحة ، فقال : أمسينا ، وأمسى الملك لله .

لنتوقف قليلا عند الجملة التي تحتها خط ، ولندرسها قليلا (فقط لغير المستعربين من القراء ، لأن الجملة بسيطة جدا) .

يستعمل المبتلى في إجابته مرتين الصيغة الرابعة للفعل «مسى» ، في الحالة الأولى أمسينا ، وفي الحالة الثانية أمسى وهو من أخوات كان ، وفي الترجمة لا نجد الجناس (اللعب بالكلمات) الذي في الأصل : أمسينا ، وأمسى الملك لله . في الجملة الأولى المعنى نفسه مقابل لها في الأيكة ، وتتفق تماما مع شرح كورياس ، والثانية تعبر عن الصبر ، والتسليم المطلق للمسلم الصالح لإرادة الله في كل ما أراد . في رواية مشرقية متأخرة سأذكرها فيما بعد ، تتحول هذه الجملة إلى «والحمد لله» التي تقال في كل الأحوال ، وفي المكاره بصفة خاصة ، وهي جملة يصاحبها في أي الحالات التعبير على كل حال التي توضح الموقف تماما ، أو حماسة من يستخدمها .

الحكاية موجودة كذلك في الأدب العربي المشرقي . في كتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (المتوفى في بدايات القرن السادس / السابع) تُحكى بهذه الصورة :

وأصاب حجر عين أعور الصحيحة ، فوضع يده عليها ، وقال : أمسينا ، وأمسى الملك لله .

تُشتق من رواية محاضرات الأدباء – على وجه الاحتمال – حكاية في كتاب الكشكول، لبهاء الدين العاملي (953 / 1547 – 1030 / 1624) تقول :

ضرب رجل أعور بحجر ، فأصاب العين الصحيحة ، فوضع الأعور يده على عينه، وقال : أمسينا ، والحمد لله .

هذه الرواية مع تكرارها غير الضروري لعدة كلمات بها تغيير مهم هو جملة والحمد لله بدلا من «وأمسى الملك لله ، فالمبتلى هنا أذعن لقدره ، حامدا لله ، على كل حال ، كما هو الطبيعي من مسلم صالح ، بيد أن اللعب بالكلمات (الجناس) يختفي هنا ، وتفقد النكتة جزءا صالحا من ملاحتها .

ثمة رواية طبق الأصل لرواية كتاب العقد المذكورة في بداية الكلام ، في كتاب حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي (توفى سنة 1426) مع تغيير وحيد في البداية : وقال أبو حاتم بدلا من أبو حاتم قال . والجملة الأخيرة مرجوحة تبعا لقواعد النحو العربي .

كما هو بيّن . الموضوع حكاية تقليدية مأثورة سواء في الأدب العربي أو الإسباني ، يقول لي صديقي وزميلي فرانسسكو يوندراين : إنه في السنوات العشرين من هذا القرن كانت هذه النكتة تجري على ألسنة الناس في تخوم منطقة نابارّا . في تلك الرواية : لاعب الكرة يقذف بالكرة عينا صحيحة لمشاهد أعور ، يتحسر قائلا : مسيتم بالخير .

لقد كان أكثر بكورا من فقدها :

الحكاية التي نراها الآن حكاية تقليدية بلا ريب ، ما زالت حية بين الناس ، وهي في القسم العاشر بعنوان «أقوال غريبة» تقول ما يلي :

والد غاضب ولده ؛ لأنه لا يصحو في الصباح ، فقال له متمثلا : إن أحدهم صحا في الصباح فعثر على بدرة مليئة بالنقود ، فما كان من الولد إلا أن أجابه قائلا : لقد كان أكثر بكورا من فقدها .

نقل فرانسسكو أسسنيو الذي تابع الأيكة في القرن الثامن عشر الحكاية في القسم الثامن من الجزء الثاني في الفصل الرابع بعنوان «عن الأولاد» في صيغة مشابهة تماما لصيغة سانتاكروث ، حشا البداية إذ أتى بالفعل «غاضب» قبل الفاعل «والد» .

أثناء قراءتي لفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ، مترجم «ثامرلان» المتوفي في منتصف القرن الخامس عشر (وبالتحديد في سنة 1450) وهو كتاب يشاكل «سراج الملوك» ، في صورة أمثال تقليدا لأعمال فارسية من النوع ذاته ، وهو كتاب ذو أهمية ضخمة ، وخليق أن يترجم كله ، (وهو عمل ربما وجد من يتصدى له يوما ما) .

في هذا الكتاب عثرت على حكاية بها مشابه كبيرة من الحكاية الإسبانية ، إنها نص طويل مسجوع ، كالكتاب كله ، حكاية كحايات أخرى مماثلة ، داخل إطار الكتاب ، وبها قصد مماثل لألف ليلة وليلة ، أو بتعبير أدق لكليلة ودمنة .

وبما أن الحكاية متعبة ، وإن كانت غير صعبة ، ومن المناسب الحفاظ على المستوى ، فقد اخترت بعد ترجمتي لها كاملة أن أختصرها بعض اختصار ، محافظا في معظم الأحوال على شكل الحكاية حرفيا ، حينما يكون ذلك مهما بالنسبة لموضوعنا ، أما الحوار فقد وضعته بين قوسين ، لنر ما يقول :

بلغنا أن بزرجمهر الوزير كان ذا علم غزير ، ورأي وتدبير ، وبديهة جواب ، تفحم الكد والتفكير ، وكان حكيم زمانه ، وعليم أوانه ، وممن فاق في الفضل والحكم سائر أترابه وأقرانه ، وكان مقربا عند مخدومه يزيد في كل وقت في تكريمه وتعظيمه ، وتوقيره وتفخيمه ، ويصغى إلى نصائحه ، ويعد قربه من أعظم مناجحه ، ويصبر على كلامه

الصادع ووعظه القارع ، ونصحه الفادع ، لما فيه من الفوائد والمنافع ، والحكم والبدائع، وقد قيل من أحبك نهاك ، ومن أبغضك أغواك ، فكان الوزير يبادر قبل سائر الخدم في وظائف الخدم ويعجل من الليل والظلم ، حتى كأنه يوافق النجم ، أو يسابقه في الرجم، ومع ذلك كل يوم يجد مخدومه راقدا في النوم ، فيقرعه بالغفلة ، وينقم عليه هذه الفعلة ، ويعلن بالندا ، وينادي في الملا ، فيقول أفق يا محجوب ، ويتيقظ حتى تظفر بالمطلوب ، فمن باكر نجح ، ومن غلس المطلوب أفلح ، ومن تخلف في النوم سبقه إلى المنزل القوم ، وفاته المطلوب ، ولا يدرك المحبوب ، واترك لذة الكرى ، فعند الصباح يحمد القوم السرى ، وكان كسرى يجد لهذا الكلام أنواعا من الآلام ؛ لأنه كان يطيل السهر إلى وقت السحر ، عاكفا على المدام ، وسماع الأنغام ، ومغازلة الغزلان ومعاقرة الندمان ، وإحياء الليل عمر ثان ، فإذا نام واستراح ، امتد نومه إلى الصباح ، فلا يوقظه إلا عياط الوزير ، وصراخ ذلك الصائح النذير ، فلما طال عليه المطال ، وغلب عليه من ذلك الملال ، أرصد للوزير في الطريق ، من منعه عن التبكير بالتعويق ، فتصدى له الرصد ، وأعروا رأسه والجسد ، وأخذوا قماشه ، وسلبوا رياشه ، فرجع إلى بيته مكرها، ولبس ثيابا غيرها ، فأبطأ في ذلك اليوم ، وتخلف في الخدمة عن القوم ، ولم يجيء إلا وقد استيقظ كسرى من النوم ، وهو جالس في صدر الإيوان ، وحواليه مباشرو الديوان ، وسائر الوزراء والأركان ، وعامة الجند والأعوان ، كل في مقامه ، ضابط زمامه ، فأدى بزرجمهر وظائف الخدمة على عادته ، ووقف في مكانه مع جماعته ، فقال كسرى ما دعا مولانا الوزير ، في هذا اليوم المنير ، إلى التخلف والتأخير ، وترك التبكير ، وإنشاده بالتبكير قول الشاعر الكبير :

بكرا صاحبي قبل الهجير   إن ذاك النجاح في التبكير

فقال إن الحرامي عارضني أمامي ، وقصدني في ظلامي ، فأخذ شاش ، وسلبني قماشي ورياشي ، فرجعت إلى كناسي ، وجددت زينتي ولباسي ، فهذا سبب تأخيري ،

وعدم تبكيري ، وموجب تخلفي عن وعظي وتذكيري ، فقال كسرى ما أفادك التذكير، إلا الغرامة في التبكير ، ولولاه ما سلب القماش ، ولا ذهب الرياش ، ولا قام الحرامي بالمعاش ، فأين الفلاح في القيام قبل الصباح ، فقال بزرجمهر في الحال ، وقد أصاب في الجواب ، ليس ذلك كذلك يا إمامي ، وإنما بكر قبلي الحرامي ، ولم أباكر أنا بالنسبة إليه ، فرجع فائدة تبكيره مني عليه ، فعجب كسرى من خطابه ، وسرعة بديهته في جوابه .

إذا اختصرنا تلك الفحوى في خطوطها الأساسية نرى أن ثمة شخصية قررت أن تكون مناصرة للتبكير هي شخصية الوزير ، وشخصية أخرى هي الملك تناهض البكور ، فالوزير لمكانته لدى الملك يناشده التبكير ، موضحا له مناسبته له وفوائده التي تعود عليه منه ، في كل هذا اتفاق تام بين حكاية الأيكة ، بما في ذلك استطاعة الوزير إغضاب الملك ؛ لاهتمامه به كما يهتم بولده .

ومن هنا فإن خطة الحكايتين تتناظران حتى في الحل ، فالذي يحدث هو أن الحيثيات التي يقوم بها واحد وآخر ذات إشارة متناقضة ، ولذا فالنتيجة النهائية مختلفة ، وبكلمات أخرى ، فالكاتب القديم للرواية المشرقية الأولى يدافع عن قضية التبكير ، (وهي من جهة أخرى قضية إسلامية : الصلاة خير من النوم) لكنه يقدم دليلا «مشاهدا» غير ملائم لتحقيق القضية ، والرواية الإسبانية التي تدافع عن قضية مختلفة تبالغ على العكس في فائدة التبكير ، وفي الروايتين تعد مقدما فحوى ما ، مع الرغبة في تحطيمها ، وكما هو الحال في نقطة الانطلاق من تصورين مختلفين ، ففي فاكهة الخلفاء النتيجة إيجابية ينبغي التبكير ، وفي الأيكة سلبية لا ينبغي التبكير .

حسن إذن . أية علاقة يمكن أن تقوم بين حكاية ابن عربشاه المطولة وبين الحكاية الإسبانية ؟ في التصنيف المتأخر لنزهة الأدباء التي ترجم في مخطوطتها رينيه باسيه عددا طيبا من الحكايات حكاية ترتكز إلى أساس بعيد ، إلى القضية ذاتها في حكاية بزرجمهر ، إنها حكاية نصها موجز جدا ، ومشوه أيضًا يقول ما يلي :

حكايات عربية في الأيكة الإسبانية

يروى أن رجلا مثل يوما بين يدي الحاكم ، طالبا مساعدته ، فاستقدمه ، فلما حضر بين يديه ، سأله : ماذا حدث لك ؟ فأجابه : سمعت حديثا عن النبي ﷺ يقول : طوبى للذين ينهضون في البكور . واليوم صحوت مبكرا ، فقابلني لصوص ، سلبوني ثيابي ، وكل ما معي ، فقال الحاكم : لقد كانوا أكثر منك تبكيرا ، ولذلك حصلوا على ما كان لديك .

من الصعب إقامة علاقة بين هذه الحكاية وحكاية الأيكة ، دون بيانات أخرى بين أيدينا ، لكنها تشير إلى أن حكاية بزرجمهر حظيت بشيوع كبير في الأدب العربي ، حتى في الخاتمة النهائية التي لا تبلى جدتها . من المحتمل أن نعثر في يوم ما على إحدى الروايات الموجزة تحوي الخط الأساسي ، أو تقترب أكثر من الحكاية الإسبانية .

في المكتبة المشرقية لهربيلوت وفي المقال المخصص لبزرجمهر نجد الحكاية ذاتها في صيغة موجزة إلى حد كبير ، دون إشارة إلى المصدر بيد أن المصدر شيء آخر بلا ريب ؛ لأن أنوشروان هنا يعين بزرجمهر مؤدبا لولده هرمز ، وهذا الأمير الشاب في هذه الرواية هو الذي يتلقى تأنيب الوزير ، ويفكر في الوسيلة التي يتقي بها هذا التأنيب .

المرآة :

الحكاية الأكثر شهرة - بلا ريب - من بين كل الحكايات التي درستها في هذا المقال تلك التي في الفصل السابع بعنوان : «عن الشيوخ» في القسم الحادي عشر من الأيكة تحت رقم 10 ، تقول ما يلي :

وجدت عجوز مرآة في مزبلة ، فنظرت فيها ، فرأت وجهها ، أنحت باللوم على المرآة ، فرمتها قائلة : ما كنت في هذا المكان إلا لرداءتك .

لقد ذكر دون مارثيلينو مينندث إي بلايو في كتابه «أصول القصة» أن هذه النادرة أصل الرومانثي المعروف لكيبيدو ، والذي ينتهي بهذه الأبيات :

ينبغي رمي الوجه ،

لا رمي المرآة بلا ذنب .

وللطول المفرط الذي أضفاه كيبيدو على الموضوع ، والذي سخر له خياله المحلق ، سأنقل فقط الأبيات ذات الصلة بحكاية الأيكة ، راجعا إلى الطبعة الجيدة للأعمال الشعرية الكاملة لكيبيدو ، والتي اضطلع بها صديقي العزيز دون خوسيه مانويل بلاكوا :

كانت عجوزا هِمّا ، تجحد ماضي السنين

تمنح الحواشي الكثير ، حيث يصمت ما هو كهل

ويختفي خلف القذال .

إن لم تكن مياه التعميد ، فهي أعمار الإيمان

كانت تبحث في المزابل عن الورق ،

لم ترد الأسمال حيث لا تجرو على القراءة

شرعت في دغدغة هذه الأشياء

فلفت نظرها بصيص ، ويصاب الاهتمام بالرعب

هل هو بصيص لآلىء ، لا . ليس لآلىء

بل إنه إطار مرآة مفقود بسبب فعل الخير

نظرت فيها العجوز الشمطاء ، وهي تمسك بمغزلها

رأت أذنا بأقراط حيث بحثت عن ضيعة (أرانخويث)

محجرين لعيون مجهدة

وفي فم الليل سن واحدة

وتجاعيد ثمرة عين الجمل

ضفائر على الأنف واللحية ، حيث الكلام يشبه العض

ألقت بها على الأرض بوجه عبوس :

لقد عرفت جيد ما حدث ، فمن رماك حيث أنت .

سيداتي ، لو أن هذا يمكن ، فهو جدير بكن

فلنلق الوجه ، ولا مسوغ للمرآة

لقد دفعت المرآة وحدها جريرة بشرتها

عندما أتت ذبالة السنين أدبرت .

من حكاية ملتشور دي سانتاكروث أخذ الحكاية البرتغالي العظيم فرانسسكو رودريجيث لوبو (توفي في سنة 1636) في كتابه La Corte na aldea ، كما يشير : ر . بنيتيث كلاروس في مقدمته لطبعة الأيكة الإسبانية ، ومع ذلك لا تبدو في الورقة V 185 في طبعة لشبونة 1619 المذكورة في القائمة ، بل في الورقة 105 ، 106 ، R . حكاها بندارو إحدى الشخصيات التي لعبت دورا في المشهد الحواري «الحادي عشر» تقول الحكاية ما يلي في البرتغالية :

Hum homem de melhor parecer, & estatura, q entendi. mento, se apattou a viuer algus annos lonjc da cidade em hum monte aonde alem de tratar pouco do culto de sua pessoa, com a ar dos matos, o discurso da idade, & alguas infirmidadades que teuera, estaua do rosto & dans feicoes mui dessemclhado, vindo depois com noua occasiao a viuer a terra donde saira, querendose vestir, & concertar ao galante mandou que lhe comprassem hum espelho, fez o criado diligencia, & nao achou nenbum de quese satisfizesse o amo, tendo prouados muitos, ou quasi

todos os que suia, & preguntandolhe porque os engeitaua respodeo porque fazem tam mao rosto, & tam auelhentado que se nao pode hum home de bem ver a elles, & ha poucos annos que os suia nesra terra tan excellene: tes, q me faziao o rosto como de hum amo o Riose o moco dizedo entre sy, mais se desconhece meu amo por iguorante que por mal visto, pois ao espelho poem a culpa q teuerao montes, & aidade.

في جمع الجواهر للحصري الذي ذكرته آنفا ، حكاية هي بلا شك الأصل المحتمل لحكاية سانتاكروث ، تعالج الموضع ذاته ، تتميز أيضًا بالوجازة ، وتحوي الجملة الأخيرة نفسها ، تقول ما يلي :

ومر أعرابي بمرآة ملقاة في مزبلة ، فنظر وجهه فيها ، فإذا هو سمج بغيض ، فرمى بها ، وقال : ما طرحك أهلك من خير .

يجمع الحصري بعد ذلك حول المرآة أو ماء البئر الذي يعكس وجوه الناظرين ، (وكلهم قباح) طائفة من الحكايات ، ويحظى الموضوع بتقليد في المشرق كبير .

يظهر الموضوع أيضًا في مخطوط نزهة الأدباء في صيغة مخالفة بعض الشيء ، مستندين في ذلك إلى ترجمة رينيه باسيه الذي لا يشير إلى مصدر آخر يكون فيه الموضوع، ولا حتى كتاب الحصري الذي أفاد منه كثيرا بلا ريب في كتابه «ألف حكاية وحكاية» . وها هي حكاية باسيه :

يحكى أن رجلا رأى مرآة ملقاة ، وكان شنيع الخلقة ، فأبصر وجهه فيها هكذا ، فطرحها ، قائلا :

ما طرحك أصحابك من خير .

أذكر هنا بشيء من الفضول صدى واعيا لقرطبي نظر في المرآة التي رفعت أمامه، فقال :

إني نظـــــرت إلى المـــــرآة إذ رفعـــــت

فـأنكـــرت مقلتـاي كـــل مـــا رأتـــا

رأيـــت فيهـــا شـــيخا لـــست أعرفـــه

وكنــت أعــرف فيهــا قبــل ذاك فتــى .

خارج أيكة سانتاكروث ، ورمانثي كيبيدو ، وبعيدا عن حكاية البرتغالي فرانسسكو روديجيث لوبو لم أعثر على الحكاية لدى كتاب كلاسيكيين آخرين ، لكني هنـاك روايـة حديثة صيغت شعرا ، يمكن أن يكون أصلها إحدى هذه الروايات الثلاث ، وهـي في المتحف الفكاهي لمانويل دل بالاثيو ، ولويس ريبيرا ، تقول الأبيات :

في مرآة لاورا

نظرت دونيا مونيكا

حين رأت قبحها الشنيع

تعجبت في صوت صحله الغيظ :

ما أردأ المرايا

التي تستخدمها بنات اليوم!!



كـلب أوليـاس
وكلاب أخـرى

Del perro de olias y otros perros

Al-Andalus
Vol : VII - 1972
Fasc . 2



حكاية إسبانية من أصل عربي

كلب أولياس وكلاب أخرى

في الأدب الإسباني - مثل كل الآداب - حكايات وقصص كثيرة عن الكلاب ، لدينا كلاب من عظم ولحم ، إلى درجة أنها قادرة على التفلسف مثل ثبيون ، وبيرجانثا ، جمع ثيرفانتس لغتها ، وبقيت بعض الكلاب خالدة في أمثال وعبارات مأثورة ، ما تزال تتردد حتى اليوم ، لنذكر الكلب المشهور لأورتلانو ، وكلب أولياس ، وكلب إستجه ، وكلب الحداد ، (هذا الكلب الأخير لم يحظ بما حظى به الآخرون) .

أود في هذه الصفحات أن أتحدث عن بعض هاته الكلاب المشهورة راغبا في أن أدلل على أنها - وهي قشتالية ، وكما يبدو تخصنا تماما - كلاب منقولة من آداب أخرى ، من الأدب العربي ، أو من خلاله ، دون أن أغلق نفسي تماما في إطار انتقال شعبي محتمل - يعلم الله وحده من أين - خلال سبل معتمة من الممكن أن توضح فقط ، وقليلا الروايات المكتوبة ، وتتأكد أكثر حين تكون أشد قدما .

لدينا مثلا عن كلب البستاني المذموم عدة روايات ، كلها تتفق في الإشارة على أنه لم يكن نباتيا ، فضلا عن أنه في سلوكه مع البشر يبدو غريب الأطوار «كلب البستاني لا يأكل البقل ، ولا يدع أحدا يأكله » يقص علينا مترجمه القديم الماركيز دي سانتيانا : «كلب البستاني لا يأكل البقل ، ولا يدع الغير يأكله» . يقول لنا بثيانو :

هذا المثل الأخير منطقي إلى أبعد حد، كان كلبا غيورا حارسا. «مثل كلب البستاني لا يأكل البقل، ولا يدع أحدا يأكله». في رواية المايسترو كورّياس حيث يكون في ذرعنا أن نفهم: «حاشا صاحبه، وصاحب البستان». ما تزال الرواية الأكثر حداثة متداولة بيننا حتى الآن، وهي التي أضفت عليه شهرة سيئة: «كلب البستاني لا يأكل البقل، ولا يدع حتى صاحبه يأكله»ما زال عندما مثل آخر جمعه هرنان نونييث يصور طريقته في حراسة البستان: «كلب البستاني ليس بجائع، ولا بمكتظ» معلقا عليه: «ينبغي أن نعلم أنه: لا ينبح».

في العصر الذهبي، يخلد لوبي دي بيجا بطلنا في كوميديا عنوانها «كلب البستاني». لكن قبل ذلك بقرنين، نرى خوان ألباريث جاتو في مقطوعات يعذل فيها سيدة على تقلب أطوارها، وعلى ترددها بذكر المثل - بعد ذكره «شكاواها» التي لا تجني من ورائها شيئا «لا تأخذها، ولا تدعها» محاولا أن يثير حميتها:

إنك تعلمين أنني أتتبعك

بحب كبير

فكلب البستاني

لا ينبغي أن تجعليه صاحبا لي.

كلب البستاني هذا مذكور منذ أمد بعيد في الأدب الأندلسي تحدث عنه ابن حزم في طوق الحمامة، حسبما ذكر مترجمه دون إميليو غرثيه غومث، في الطبعة الحديثة للأمثال في مجلة الأندلس التي جمعها الزجالي القرطبي (توفي في نهاية القرن الثالث عشر). يبدو المثل بهذه الصورة: «كلب الورد لا يشم، ولا يخلي أحد يشم» ذكره أيضًا ابن عاصم «توفى في الربع الأول من القرن الخامس عشر»، ومن خلاله في وسعنا أن نعتقد أن كلبنا ما فتئ حيا حتى نهاية إسبانيا الإسلامية.

لكن لندع كلب البستاني في سلام ؛ لأنه ليس في ذرعنا أن نجني شيئا من بستانه، ولنر كلابا أخرى .

كلب أولياس :

في كوميديا «غدا يكون يوما آخر» الجزء الثاني ، جمع دون بدرو كالديرون دي لاباركا حكاية شعبية في زمنه بلا ريب ، في سبعة أبيات على لسان روكي الظريف ، مخاطبا دون فرناندو المتغزل . الحكاية مناسبة تماما في موضعها ، في المشهد الثامن عشر صنع روكي لصاحبه إشارة واضحة إلى الغداء :

سيدي ، الآن أنت

تتحدث حديثا مسهبا جدا ؟

هل تدري أن حماك

ينتظرك على الغداء ؟

تلك الإشارة التي لم يعرها دون فرناندو أية أهمية ، يلح في المشهد الثاني والعشرين على الحدث ذاته :

لكن نحن نمضي

دون غداء

وفي منزل ابنة عمك

قد تناولوا الغداء .

يسأله دون فرناندو : أليس للأمر أهمية . فيستغل الفتى هذه الفرصة لكي يقص الحكاية :

كما حدث لكلب أولياس

لرغبته في أن يحضر عرسين معا

ذهب إلى كابانياس في سرعة خاطفة

وحين وصل إلى هنالك وجدهم قد تناولوا الغداء

فعاد توا إلى قريته

فوجدهم قد تناولوا الغداء كذلك .

أعاد روكي الكرة على التوالي : «إذن لنأكل ، يا له من إلحاف من رجل قزم!» «الملوك طوال القامة .. ويأكلون ... إلخ» . لنعد إلى الحكاية :

أولياس هي أولياس دِلْ رِيّ ، وكابانياس هي كابانياس دي لاساجرا ، قريتان من أعمال طليطلة ، بينهما غلوة ، وبقيت أولياس في مثل يقول : «مثل عرسان أولياس» (لم يكونوا فيما نعرف أصحاب تلك العرس) ربما تحول في مثل آخر «مثل كلب أولياس» ليعود في هذه الصيغة : «مثل كلب الأعراس الكثيرة لا يأكل في واحد منها ؛ لأنه يريد أن يأكل فيها كلها» . وعلى كل حال ثمة صلة واضحة بين هذا المثل ، الذي جمعه المايسترو كورياس ، والحكاية التي يقصها كالديرون .

ثمة حكاية شعبية وثيقة الصلة جدا بهذا المثل في El motif Index of folk-Literature (motivo J 2183.1) ، حيث يبدو مختصرا بهذه الصورة :

في قرى تقع على تلال متقابلة ، يعزف الحراس أنغاما مصاحبة لوجبات الطعام ، فيتجه الكلب في اتجاه الموسيقى المنبعثة من إحداها ، لكنه ما إن يصبح في منتصف التل حتى تبدأ الموسيقى في الجهة الأخرى ، ويظل يتردد بين هذه وتلك صعودا وهبوطا حتى ينتهي الطعام ، ولا ينال شيئا .

وعلى التوالي يشار إلى المصدر «Pauli Ed.Bolte.» رقم 24 . الهند : «Tompson – Balys» . يقصد على التوالي طبعة Johannes Pauli : وطبعة Sqimpf und Ernst, الذي نشره جون بولتي في برلين «1924» . (1530 . Ca – 1455) في جزئين .

وكذلك طبعة Motif and Type Index of the oral Tales of India . لمؤلفها Stith Thomson y Jonas Balys. وكانت في مطبعة بلومنجتون «بإنديانا» سبتمبر 1955 ، وليس لدي أخبار كثيرة عنها .

لم أستطع للأسف الرجوع إلى طبعة بـولتي مـن Schimpf und Ernst . حيـث توجد - فيما أعتقد بعض تعليقات ، وكان عليّ أن أحـدد نفسي في الطبعـة القديمـة لهرمان أوسترلي التي أقدم منها النص لحكايتنـا ، وهـو مختـصر جيـد مـن Elmotif Index يشير أوسترلي إلى مصنفين يبدو فيهما الموضوع ذاتـه Speculunn لبثينتـي دي بياوبياس (1200 - 1264) وإلى Scherz mit der Warbeyt المنشور في فرانكفـورت سنة 1563 ، أما الحكاية التي تضمنها مصنف بيثنتي بياوبياس فقـد ذاعـت شـهرتها جدا خلال العصر الوسيط وما بعده ، مما يجعلنـا نعتقـد أن حكايـة الكلـب يمكـن العثور عليها في كل مكان .

في البداية يمكن التفكير في أن حكاية كلب أولياس كانت ببساطة رواية إسبانية شعبية إلى درجة أن كالديرون نفسه صـاغها في صـيغة شـعبية ، وفي أيـة حـال فـإن التغيير قبل كل شيء هو تحول الحـصون إلى ضـيعات (بأسـمائها وصـفاتها) والنفـير للذهاب إلى المعسكر إلى موسـيقى فرحـة تعلـن عـن عـرس في قريـة - وإن لم يقـل كالديرون ذلك - تصدح تلك الموسيقى - دون ريب - في أولياس وكابانياس.

يشير إلى الموضوع بوضوح - وكما هو معـروف - مـيرا دي أميـسكوا في «عبـد الشيطان» الذي وضع على لسان دومنجو - إحدى الشخصيات - مـا يـلي : «كـان عرس الكلب هو ذلك العرس» على ما أشار به عليّ - مـشكورا - صـديقي العزيـز الإسبانستا الكبير ماكسيمي شيفالير الأستاذ في جامعة بورديوس .

ثمة حكاية لها نفس الباعث ، وهي بلا ريب قديمة مـن قـرون ، منـذ جمعهـا المصنف ، في «أنيس الجليس» للأديب المـصري الكبـير جـلال الـدين الـسيوطي

(849 – 911 / 1445 – 1505) ، لم أستطع العـودة إلى هـذا الكتـاب مبـاشرة ، ولـذا رجعت إلى نص الحكاية منشورا في مجاني الأدب لـلأب شـيخو . وإن كـان الباعـث التربوي لهذه المنتخبات المشهورة وراء تغيير بعض النصوص لتـسهيل فهمهـا ، وإن كنت لا أعتقد أن هذا حدث لموضوعنا ، وحتى على فـرض حدوثـه ، فـإن التغيـير ليس بذي أهمية ، يقول السيوطي :

حكى أن كلبا كان من عادته إذا سمع صوت طبل في مكان يذهب إليه ، ويظن أن فيه عرسا أو وليمة . فعمل الناس حيلة على ذلك الكلب وتواطؤوا بأن يضربوا الطبل في قريتين كلما أتي الكلب إلى مضرب الطبـل يـسكت ويـضرب في القريـة الأخـرى . ففعلوا ذلك ، فجعل الكلب يجري بين القريتين كلما جاء قريـة مـنهما أسـكتوا الطبـل وضرب في القرية الأخرى . ولم يزل كذلك حتى مات الكلب جائعا عطشان .

رواية كالديرون أقرب إلى رواية «أنيس الجليس» منها إلى Schimpf umd Ernst (من خلال إشارتي إلى الـنص الـذي رأيتـه مبـاشرة) . في كتـاب الـسيوطي يحـدث الحدث في بيئة قروية لا عسكرية ، والباعث الـذي دفـع بالكلـب إلى الـذهاب مـن مكان إلى آخر ليس بوق المعسكر ، بل الموسـيقى التـي تـصدح في أعـراس قرويـة ، يكون فيها دائما أطعمة جيدة وكثيرة . أهمـل كالـديرون تفـصيل الطبـل Atabal (في إسبانيا الإسلامية – على العكس – كانت تستخدم كلمـة البـوق Albogue) وثمـة إشارات كثـيرة إلى اسـتخدامه في الأعـراس ، منـاوءة لمـا كـان يـصرخ بـه الفقهـاء «المتزمتون» . لكن كلبـه اسـتطاع إلى حـد بعيـد أن يـصل إلى كابانيـاس (في سرعـة خاطفة) لأنه علم أن هناك عرسا ، ويروم العودة إلى أولياس حيث يقام عرس آخر، وأن يعود في العرسين ممتلئ المعدة في عام خصيب .

وبالعكس ، فإن الرواية العربية ذات نهاية مخالفـة ، بيـنما في الأخريـات الكلـب البائس (يقدمه باولي بعبارة 'ein nerrischer hund' بيد أنه يترفق به فيما بعـد فيطلـق عليه (der arm hund)

ويظل متلمظا دون أن يتدخل أحد في ذلك ، وفي أنيس الجليس ، القرويون واعون برد فعل الحيوان ، فيخترعون الأملوحة القاسية التي كلفته حياته ، ومع ذلك أعتقد أن هناك إضافة لاحقة باعثها كراهية المسلمين للكلاب منذ عهد النبي (ص) الذي كره الكلاب لقومه حسبما تروي الأحاديث .

لم أيأس من العثور على روايات عربية أخرى أقدم ، ففي ثمار القلوب للثعالبي عثرت على شرح للقول المأثور «راكب اثنين» يضرب مثلا لمن يعمد لشيئين اثنين فما يتحصل منهما على شيء ويتضرر بذلك . غير أنه لا يقص علينا الحكاية التي ننتظرها، بل يستشهد بثلاثة أبيات من الشعر لقائل مجهول تشرح القضية .

كلب الحداد :

يضم القسم الثاني من الأيكة الإسبانية لملتشور دي سانتاكروث ، وفي الفصل الثاني منه بعنوان «عن الفرسان» الحكاية رقم 7 ، التي تقول ما يلي :

تعود تابع فقير أن يأتي ساعة غداء القونت دي أوريننا وكان القونت يعرف حاجته ، فكان يصر أن يأكل في داره ، ذات يوم أخبر أن ضجة في القصر ، ولم يجد التابع هناك ؛ إذ تعود أن يذهب ساعة الغداء ، قال له القونت : تنام على صوت المطارق وتصحو على صوت المضغ ، مثل كلب الحداد : لن تظل معي بعد ذلك .

ليس ثمة أدنى إشارة حول تلك الحكاية في مقدمة الناشر إن الأمر بالتأكيد يدور حول حكاية شائعة تحولت إلى مثل . وإن كان هذا لم يبد في صيغة تقليدية ، وفيما يخص حكايتنا ، يبدو أنه يشير بدوره إلى حكاية أخرى ، حكاية شعبية بلا شك لمن يحيا الظروف نفسها ، تذكارا أخيرا .

يبدو المثل في «الأمثال» أو المرددات المأثورة في الرومانثي ، التي جمعها وشرحها القومندادور هرنان نونييث في صورته هذه : «كلب الحداد ينام على صوت المطارق، ويصحو على مضغ الطعام» .

جمعه في الصيغة ذاتها ، فيما بعد ، المايسترو جونثالو كورياس في معجمه ، كذلك نراه في ذخيرة اللغة القشتالية أو الإسبانية لسباستيان دي كوبارو بياس ، ولم يُشرح المثل في كليهما ؛ لاعتقاد المصنفين أن الشرح غير ضروري دون شك ، وقد وجدت المثل معلقا عليه في حكاية مؤرخة بدقة مجموعا في «الفلوريتو» نشره سانشث كانتون، أنقله فيما يلي :

في موقعة أولميدو انتصر الملك دون فرناندو الرابع فوزع عطايا على من ساعدوه في المعركة ، حين صنع هذا بعث القونت دي هارو بدرو إرنانـدث دي بيلاسكو - وكان معاصرا لتلك الموقعة - وقد أسر هو واثنا عشر راهبا في مدينة دي بومار بلباسهم الأحمر القاني ، بعث بمذكرة قرئت في مجلس الملك ، الذي قال : انتظروا ، فالقونت دي هارو مثل كلب الحداد ينام على صوت المطارق ، ويصحو على صوت المضغ ، ومع كل هذا طلب عشر البحر ، والملك أعطاه ، إنه دخل ميت ، فعقد سلام مع فرنسا يدر دخلا أفضل من أربعين ألف دوقية .

إذا اعتقدنا صدق الرواية ، فإن المثل ظل حيا في قشتالة إلى منتصف القرن الخامس عشر ، ومن الطبيعي أن نعتقد أنه مثل قديم ، فقبل ذلك بسنوات طويلة قبل هذا التاريخ (موقعة أو لميدو كانت في سنة 1467) جمع هذا المثل في صيغته العربية الوزير الأديب الغرناطي ابن عاصم في كتابه حدائق الأزاهر ، وإن كانت قراءة المثل في طبعة فاس الحجرية تتعثر لخلل في كلمتين اثنتين ، تقول الرواية :

كلاب الحدادين يرقدوا للزبار؟ ويقم (هكذا) للعم (للقم) ؟

الكلمة الأخيرة سهل تصحيحها للمعنى ، وبمساعدة المثل الإسباني ، وقد وضعت كلمة استفهام ، ومن الممكن تصحيح العبارة في ضوء النص الذي أتحدث عنه فيما يلي :

لم أعثر على أية حكاية إسبانية تتحدث عن كلاب الحدادين (مع العلم أن من السهل إنشاء حكايات أخرى على نمط هذا المثل) بيد أن في العربية حكايات تنسب إلى لقمان ، تقول إحداها ما يلي :

حداد كان له كلب ، وكان لا يزال نائما ما دام الحداد يعمل شغلا ، فإذا رفع العمل وجلس هو وأصحابه ليأكلوا خبزا استيقظ الكلب . فقال الحداد : «يا كلب السوء . لأي سبب صوت المرزبات الذي يزعزع الأرض لا يقظك ، وصوت المضغ الخفي إذا أنت سمعته واستيقظت» .

لقمان من الشخصيات التي دار حولها نقاش كثير في الإسلام ، وقبل الإسلام . ذكره القرآن الكريم ، وظل باقيا عبر القرون في الأدب العربي ، يلعب أدوارا مختلفة. في عصر الوثنية جسد الحكمة ، والبطولة ، وطول العمر ، (مئات أو آلاف من السنين) ويذكره القرآن عالما ، ورجلا حكيما ، وصنعت منه الأعراف التالية شخصية أسطورية يمتزج فيها البطل بالعالم ، بالشاعر الحكيم ، القصاص ، ومن خلال هذا الوصف الأخير تتعانق حكايته بحكاية إيسوب ، وكثير من الحكايات المنسوبة إلى لقمان ، منسوبة كذلك إلى الراوية الإغريقي .

إحدى هذه الحكايات هي التي نتحدث عنها ، والإشارة إلى المصادر المشرقية المذكورة فيها (صعب أو مستحيل الحصول عليها في مدريد) موجودة في مصنف كلاسيكي لشوفين ، ولم أرها شاعرا بعدم الرغبة في الولوج إلى مشاكل دقيقة تطرحها روايتها .

حين عالجت هذه الحكاية صنعت ذلك مفكرا في أن الأمر ذو دلالة على أن كلب الحداد غدا مضرب المثل ، وهذا المثل التقطه ابن عاصم من الذين استخدموه في غرناطة النصرية ، وغدا أيضًا مضرب المثل في العدوة الأخرى من التخوم ، وله حياته المستقلة .

لكني لن ألج من جديد في موضوع صعب كموضوع الأمثال ، التي طلع علينا بجديد كثير حولها في هذه المجلة (وفي غيرها المايسترو غرثيه غومث) وما زال لديه - فيما أعتقد - أشياء جديدة حول هذه القضية .

كلاب لا تعرف اللاتينية :

تضم الأيكة الإسبانية لملتشور دي سانتاكروث ، في الفصل الثاني «عن الكرادلة»في القسم الأول حكاية رقم 9 ، تقول ما يلي :

كان راهب من بسكايا تابعا للكاردينال دون بدرو جونثالث دي ميندوثا ، قد تأبط سلاحا ، فرآه الكاردينال فنصحه قائلا : إن من العيب أن يتأبط الراهب سلاحا ، فرد عليه الراهب الباسكي : سيدي الكاردينال : لم أتأبط سلاحا لأوذي أحدا ، بل لكلاب هذه الناحية لأنها شرسة جدا ، فقال له الكاردينال : حين يهاجمك كلب ، ولكي تكون في مأمن ، ولئلا يصيبك بسوء ، فاقرأ عليه بعضا من إنجيل القديس يوحنا ، فرد عليه الباسكي : سيدي ، ما زال ضروريا حمل سلاح ؛ لأن بعض الكلاب لا تعرف اللاتينية .

ناشر الأيكة : ر . بينبتث كلاروس الذي تحدث في مقدمته الموجزة عن صعوبة الوصول إلى مصادر الكتاب ، والذي أشار إلى مصادر بعض الحكايات - لم يشر أية إشارة إلى مصدر هذه الحكاية ، ولا عن ورودها في كتابات مؤلفين لاحقين ، والأمر حكاية تقليدية لها روايات أخرى في الأدب الإسباني .

يستخدم لوبي دي بيجا في أحد مصنفاته المشهورة الميلودراما «بيري بانييث والقومندادور دي أوكانيا» - تلك الحكاية ، مصورا لها في تمثيلية ، مغيّرا وموسعا في عدد الشخصيات ، يختفي الكاردينال ، ولكي يجعل المشهد عاطفيا ، جعل الكلب عجلا ، بل ثلاثة عجول ، تقول الحكاية ما يلي :

راهب : ما هذا ؟

بارتولو : ألم تره في صخبه ، وضجته ؟

راهب : إذن ، أهم أحضروا العجل ؟

بارتولو : كيف يكون عجلا واحدا ، إنها ثلاثة عجول ،
غير أن الرماد الذي يحضرونه الآن
من الحقل ، يحيي الشمس التي
تحمل الوهج الإسباني!!
لم يسطع في أي لحظة .
لقد لف مرتين حول براس
ولم يستطع أي إيطالي
أن يمضي بهدوء ،
وبهذه الطريقة أبدا .
على فرس أنطون خيل
التي أخذوها مؤخرا من الحقول الخضراء
ببطنها الممتليء ،
تنظر إلى العشب .
ليس مزاحا ، أن نزعوا سراويل توماس
لم يبقوا له شيئا على ما رأوا

وإن كان لم يحلق ذقنه أبدا

وصاحبنا القومندادور دي أوكانيا

هو وأرضه ،

شجاع في هَمْزِه

أشجع من الصقر

أقسم بشرفي :

لو لم يكن العجل يحمل شريطا ...!!

راهب : هنا . ألا يستطيع الدخول ؟

بارتولو : كان بوسعه قبل ذلك .

راهب : إذن ، يا بدرو . بهذه الطريقة

أثب إلى سطح البيت

كونستانثا : اتل عليه إحدى التراتيل الدينية ؛

لأنه لا يليق أن تهرب يا سيدي الراهب .

راهب : ترتيل ! ولأي هدف ؟

كونستانثا : لأي هدف!! للصمود .

راهب : إنها مخدوعة . إذ إن بعض العجول

لا تفهم اللاتينية جيدا .

ما يزال لوبي دي بيجا يذكر حكايتنا (إذا كانت الكوميديا له)

في «المعرفة لعدم المعرفة» .

خوليان : في الواقع :

بما أنك ذكّرتني بمرج عند مدخل البيت

أردت أن أراه مرة أخرى

لم تكن هناك عجول ، بل كانت ثيرانا :

وصلت إلي .

تومي : أية حماقة !!

خوليان : اقترب مني ثور

وعندما أراد نطحي

نزع مسبحته ، وقال :

أية حماقة !!

تومي : لا ، يا أبي .

لكن انظر ، إنه طوال حياته

لم ير ثيرانا تعرف الصلاة

ويستطيع أحدها أن يطوح به في الهواء .

لماذا يسير بصحبة كلاب

هل يريد أن تنهشه في إحدى المرات

خوليان : أعرف صلاة باللاتينية أصليها في وجه تلك الكلاب

تومي : هناك كلاب لا تفهمها

بل تعض مسعورة ،

ولا يوجد شيء تطمع فيه الكلاب

مثل ثياب الراهب .

في هذه الروايات الجديدة التي فرغنا منها في التو ، تغيرت حكاية الأيكة في حرية تامة ، مركزة على المغزى الجوهري للحكاية ذاتها ، اختفى في كليتهما الكاردينال ، والراهب - الضحية المزعومة ، للحيوان المتوحش - الذي يمثل وحده رجل الدين الإكليري ، وفي كليتهما يمشي الراهب دون سلاح ، لم يكن ثمة خطر حتى لحظة ظهور العجل / الثور الهائج ، وفي بيري بانييث إجابة الراهب لكونستانثا - التي يستقر في قرارها البسيط إيمان ساذج ، وتعتقد في المعجزة الفعالة لأية صلاة لكبح جماح العجل - هي الإجابة ذاتها التي تحوي سخرية فولتيرية رقيقة للراهب الباسكي في الأيكة .

وفي «المعرفة لعدم المعرفة» فحوى الحكاية أكثر تطورا - لنقطة الانطلاق المزدوجة - مع تغييرات مهمة - وكما هو في بيري بانييث ثيران تتميز بلونها «المحمص» ، وفي بيري بانييث تحمل لون «الهباب» ، لكن هناك حالة واحدة في كل الروايات الإسبانية التي يأتي فيها - على وجه الاحتمال - الراهب ذو الإيمان المطلق دون حدود ، والذي يستخدم في مواجهة الخطر شيئا يعتقد أنه فعال - وهكذا في النهاية : الصلوات . بينما محاوره تومي رجل واقعي دون أن يحمله على العكس ، إذ يتقدم قائلا له : هناك عجول لا تفهم الصلاة ، إجابة توافق تغير الظروف ، هنا من الممكن أن ينتهي المشهد الذي تبادلت فيه العناصر ، والمحصلة البسيطة لحكاية الأيكة هي العنصر الفكاهي للكوميديا ، والشيء المفاجيء هو إنتهاء عناصر النكتة،

يقصه المؤلف المسرحي مرة أخرى طارحا الموضوع مع الكلاب - يعود كلب الأيكة مرة أخرى - فالراهب ، خوليان ، الوحيد من بين الجميع - الذي يعتقد في فعالية كرامة الصلاة ، يقول الجملة المعهودة : أعرف صلاة باللاتينية أصليها في وجه هذه الكلاب «ويجيبه تومي بالإجابة المعهودة أيضًا : «هناك كلاب لا تعرف اللاتينية» شارعا في النفاذ إلى حصن الراهب الأخير ، متصديا له بدليل آخر : «لا يوجد شيء تطمع فيه الكلاب مثل ثياب الراهب» ، ينبغي أن يقال لشرح اليقين الذي يتمتع به خوليان ، إن الأمر ليس متعلقا براهب عادي ، بل بالقديس خوليان شفيع قلعة عبد السلام الذي يصنع معجزات طوال الكوميديا .

جمع دون بيرناردينو فرناندث دي بلاسكو دوقي دي فرياس حكايتنا في «لذة الحكمة» في رواية تتصل برواية الأيكة كما يبدو الآن :

يحكى أن أسقفا صالحا كان يحضر إليه بصورة دائمة ، أحد الرهبان ، ويحمل تحت عباءته فأسا Alfanje ، فناداه ونصحه بعنف ، فحاول الراهب أن يعتذر بأنه يستخدمها لدرء الكلاب عن نفسه ، فقال له الأسقف الصالح بوضوح : «لا يا بني لا ينبغي حمل السلاح من أجل هذا ؛ إذ حسبك تلاوة إنجيل سان خوان لتنجو من العض» ، فرد عليه الراهب : سيدي : إذا كانت الكلاب لا تفهم اللاتينية فكيف أنجو من خطرها .

لا نكاد نجد تغييرات ، فالراهب الباسكي في الأيكة هو هنا راهب ما ، والأول يحضر سلاحا تحت عباءته ، والثاني يحضر فأسا والكاردينال المذكور تحول إلى أسقف ، وكلاهما ينصح بتلاوة إنجيل سان خوان ، وكلاهما يتلقى إجابات مماثلة في عبارات متوقرة ، وإن كانت تحمل السخرية اللاذعة نفسها .

ما زال لدينا رواية أخرى للحكاية تنسب إلى دون بابلو دي خيريكا (1781 – 1831) في أعماله الشعرية ، هذا العبقري نظم حكاية الأيكة شعرا ، ولابد أنه اطلع على

رواية دوقي دي فيرياس - دون أن يغير شيئا ، وإن كان قد حدد أيضًا نتيجته ، فالراهب الباسكي عند ملتشور دي سانتاكروث راهب باسكي ، (وهو عنوان الحكاية) عند بابلو دي خيريكا :

كان راهب باسكي

قد تعود أن يحمل سلاحا كبيرا ، ويخفيه ،

فاتفق أن رآه الأسقف ، الذي وعظه بعنف ؛

لحمله شيئا لا يتفق ومظهر الراهب .

فقال له الراهب : إنه يحمله فحسب ليدرأ

به شراذم الكلاب التي تكثر في تلك الناحية .

قال له الأسقف حين سمع منه ذلك :

ستكون آمن السرب إذا حملت كتاب الصلوات ،

وإذا استخدمت الوسيلة الفعالة

بقراءة إنجيل سان لوقا ، وسان خوان

فرد عليه الباسكي وهو في هيئة الجد :

لا ضير من حمل السلاح ؛

فإن كلاب بلادي

لا تعرف اللاتينية .

الرواية الجديدة بين بين كما قلت ، بين رواية الأيكة ورواية «لذة الحكمة» ، هنا يوصي الأسقف بقراءة إنجيل سان لوقا وسان خوان ، وإجابة الراهب قيلت

بكلمات أخرى تلتقي في المانع وهو عدم معرفة الكلاب في ناحيته المعروفة باللاتينية، لكنها الرواية الوحيدة التي يصر فيها الراهب في خشية واحترام على أنه من المناسب حمل السلاح في كل الأحوال ليأمن على شخصه .

أصل واضح لحكايتنا ، حكاية جمعها ابن العبري (1225 أو 1226 – 1286) ، وهو شخصية مشهورة ومهمة في الكنيسة اليعقوبية ، معروف أكثر باسم : Bar Hebraeus كان آخر الكتاب الكبار في اللغة السريانية ، إلا أنه كان يهيمن على لغة العرب التي كتب فيها عدة مصنفات ، وعرف بأنه مترجم ابن سينا إلى السريانية ، وكتب في تلك اللغة مجموعة حكايات عنوانها : Kthábá dh^{e} thunnayé m^{e} ghahh ^{e}kháné ونشرها في ترجمة إنجليزية عنوانها : فكاهات وحكم شرقية أو قصص ضاحكة . لندن (1897) المستشرق الكبير : E . A . Walis Budge

لم أعرف هذه الترجمة التي أفاد منها كثيرا رينيه باسيه في كتابه ألف حكاية وحكاية ، وقد ترجم مصنف ابن العبري – حسب كل القرائن – إلى العربية ، لكنها ترجمة مفقودة ، وما زالت مفقودة حتى الآن كما يشير إلى ذلك J . B . Segal ، محرر مقال عن العبري في الطبعة الثانية في دائرة المعارف الإسلامية ، ومع ذلك نشر مخطوط هذا الكتاب العلامة الأب شيخو منذ نصف قرن في مجلة المشرق ، في بيروت ، هذه المجموعة عنوانها بدءا «دفع الهم» ، ثم سماها – ربما لدفع غموض مع عمل آخر مجانس لها في الاسم – الأحاديث المطربة ، وتحمل رقم 518 في طبعة شيخو في فصل عنوانه : «أحاديث بعض الظرفاء» ، تقول ما يلي :

سمع بعضهم رجلا يقول لرفيقه : إن سرت في الليل وأردت أن الكلاب لا يؤذيك فاقرأ في وجههم المزمور الذي في الآية : «خلص يا رب من فم الكلب واحدتي» ، فقال السامع : بل ، دعه يأخذ في يده عصا لأنه ليس الكلاب كلها تفهم المزامير إلا القارئين منها فقط .

لم أصادف مشقة في التحقق من الآية في موضوعها ، وهي من المزمور رقم 22 الذي ترك صدى كبيرا في العهد الجديد ، لنر الإطار الذي يحتوي على الاستشهاد من الحكاية حسب ترجمة دون فرانسسكو كانتيرا ، أشير إلى رقم الآيات التي تقول : احذر يا يحيى ، لا تبعد عني ، اشدد أزري ، بادر بنجدتي ، اعتق روحي من السيف ، وحياتي الوحيدة من أظافر الكلب ، ومن برائن الأسد ، ومن قرون الجاموس» .

الكلمات التي تحتها خط هي المشار إليها في حكاية ابن العبري ، مع تغييرات أظافر بدل يد ، وقد استشرت النص العبري في التوراة نشره : R. Kittel (Salmos 21 – 22) يقول النص حقيقة «يد الكلب» وفي هامش التحقيق لم يشر إلى أية تغييرات في تلك الآية ، ولا في مخطوطات عبرية أخرى ، ولا في روايات قديمة في لغات أخرى ، الأمر الذي يقودنا إلى واحدة من اثنتين : إما أن تغيير ابن العبري يقصد تطابق الوضع ، وإما أن هناك قطعا بين الآية التالية حيث تبدو في الواقع كلمة فم الأسد .

ومهما يكن من أمر فإن ما يعيننا هو أن الحكاية في جوهرها هي ذاتها التي نعالجها ، وإن كان الحال وتوزيع الأدوار مختلفا ، لم يشر إذا ما كان الرجل الذي يوصي وصية طيبة رجل دين ، ولا كذلك من يتلقى الوصية .

الأمر أن هناك صديقين ، ليس أحد منهما – قيل هذا في مناسبة أخرى – منذورا للحياة الدينية وإن كان كلاهما متدينا ، كذلك لا نرى سلطة في الشخص الذي ينصح ، وهو هو في الحكايات الأخرى ، ما عدا الشكل ، والنص الإلهي الذي يوصي بتلاوته . والمستقبل للنصيحة نلمحه في هذه الرواية سلبيا حقيقة ، إذ هو شخصية جديدة مقدمة في بداية الحكاية القصيرة ، والذي يتوسط يمنح بدوره نصيحة جديدة : يوصي بمصاحبة العصا ، لأن كل الكلاب لا تفهم المزامير إلا القارئين منها فقط .

حاشا هذه الاختلافات ، وهي هينة ، يبدو من الطبيعي الموافقة على أن الأمر عبارة عن الحكاية نفسها التي في الأيكة مع الملائمة الواجبة التي يفرضها اختلاف الحقبة ، والمشهد ، والبيئة الروحية ، والآلة الحادة الموصي بها في رواية ابن العبري تحولت إلى سلاح أبيض في كل الروايات الإسبانية ، وتغير أيضًا النص المحقق لمراعاة الحال : في الروايات الإسبانية دائما ، إنجيل سان خوان (وسان لوقا في الرواية الأخيرة) أي العهد الجديد في مواجهة المزامير في الرواية المشرقية ، والعهد القديم الذي لم يكن موصًى به في إسبانيا في القرن السادس عشر ، وبعد ذلك لأسباب واضحة جدا ، وأوضح منها أن يرد على لسان راعي كنيسة .

ما بين ابن العبري وملتشور دي سانتاكروث حلقات مفقودة ، ومن غير المفيد وغير المناسب التصدي لتخرصات ، حكاية مكتوبة أو حكاية شعبية ، أعتقد أنه من المهم الإشارة ولاسيما في هذه الحال الأخيرة - إلى أنه يبدو أكثر احتمالا أن المعالم قد اتضحت في أن حكاية شعبيةقد سجلت كتابه .

نعود إلى فحوى حكايتنا ، إذ هي في جوهرها محاولة لمنع الشر من خلال مسرى سحري ديني ، أو من خلال اللاأدرية أو ببساطة عبر طريقة واقعية ، أود أن أنقل هنا حكاية لابن العبري ذاته ، ومن كتابه نفسه ، ذات صلة وثقى بالحكاية التي رأيناها الآن ، تقول ما يلي :

رأى رجل صديقا له مبتلى بوجع العينين فسأله : بماذا تطبب عينيك؟ أجاب : بمزامير داود وصلوات أمي الراهبة ، فقال له : ولا بأس لو أضفت إلى ذلك قليلا من الكحل .

في هذه الحكاية أيضًا تبدو مزامير داود ذات فعالية بجانب صلوات الأم الراهبة ، وهما العلاج الوحيد للمريض المؤمن ، والصديق الواقعي - وهو هنا كذلك يسخر في لطافة - يميل أكثر إلى العلاج المجرب بطريقة علمية .

ليس من الفضول - والأمر يتعلق بالموضوع الذي ندرسه - الشرح الذي صنعه خوان دي مال لارا للمثل الإسباني : «أدعو الله ، ولا أدع الطرق بالمطرقة» . وهو

بالدقة مستهل المجموعة الأولى من كتابه : «الفلسفة الشعبية» ، ومن هذا التعليق وددت أن أنتزع بعض الفقر ، ومثلا ذا صلة بحكاياتنا .

لكن في النهاية ، يحتم العقل حين نريد عمل شيء أن نتذكر الله أولا ، الذي يجب أن نتوجه إليه ، ونسأله ، وبعد ذلك نهتم ، ولا ننتظر معجزات جديدة في كسل لا يفيد ، منتظرين يد الله التي نعرف قدرتها غير المحدودة ، لكن لا نطلب عونه على الفجور (دون أن يكون ذلك في ضميرنا) ولنفكر أن كل شيء بقدر (كما يقول اللايتنيون) بإرادة الله ، وبفضله ، كل شيء وضع مع حكايات الأطفال والعجائز الذين لا يقدرون على العمل ، وفضل الله يعمل لهم ما يريدون ، وبهذه الطريقة إذا سقط شيء فلا نرفعه ، وإذا ضاع شيء فلا نبحث عنه وإذا رأينا مالنا يضيع فلا نملك له دفعا ، حسب ما يعرف العقل الإنساني ؟ وهذا شيء أكيد من الله معتقدين أن الله يصنع معجزة ، حيث يعلم الناس أن الله يقول : ساعد نفسك أساعدك وهذا شيء مستمد من الحقيقة التي يجب علينا أن نهيئ الأسباب لكى تأتي الإرادة حسبما نريد . من ألف عمل كل ما نبلغه من السعي ، لم يولد الإنسان للعمل ! لا ينعم الله على من يلجأ للكسل ، متخذا ذلك ذريعة لرجاء الله ، وبهذا يدق بالمطرقة ، لأن العمل يقع على عاتقه ، ومن الواجب أن يقرن ذلك بالصلاة الخاشعة .

يوضح مال لارا الجزء الثاني من المثل ، لنر نقطة البداية التي انطلق منها الموضوع مع مثلين ، لنحدد أنفسنا في المثل الأشهر :

يحكون أن حوذيا كان يقود عربة محملة ، تحطمت منه في الطريق ، مر به سان برناردو ، حين وصل إليه ، وبشهرته بحياته الصالحة المقدسة قال له الرجل : ادع الله أن يسلم لي العربة بجاهك عنده ، قيل إن القديس قال له : سأدعوا يا صاحبي ، وأنت خلال ذلك اطرق بالطرقة .

أعتذر لطول الاستشهاد الذي دفعني إليه غرابة الفلسفة الشعبية ، ولا أقول إن مال لارا كان عليه أن يوصي بالعصا (أو بالسلاح) وبالكحل .



صدى عمرو بن معد يكرب

في الأدب الإسباني

-

Eco de un poeta Arabe Antiguo

En la literature española

Al-Andalus

Vol : XLI - 1976

Fasc . 1

صدى عمرو بن معد يكرب في الأدب الإسباني

أدرس في الصفحات الآتية حكايتين في الأدب الإسباني، ليس بينهما صلة واضحة، في كتابين متباينين جدا، وفي حقبتين بعيدتين أيضًا، باعثهما ومغزاهما - رغم كل هذا، وكما أظن، وإن لم يكن في الذرع التدليل على ذلك - يئول إلى الشخصية ذاتها في الأدب العربي، والتي تنسب إليها حكاياتها باعتبارها شخصية قديمة .

الحكاية الأولى في كتاب "El espéculo de los legos" في ترجمتها الإسبانية في القرن الخامس عشر عن أصل لاتيني في القرن الثالث عشر حرِّر في انجلترا، والحكاية الثانية في كتاب الأيكة الإسبانية لفرانسسكو أسنسيو المنشورة في القرن الثامن عشر . والحكايتان المناظرتان لهما موجودتان في كتب عربية مختلفة، ومنسوبتان إلى الشخصية ذاتها، إلى شخصية الشاعر عمرو بن معد يكرب في القرن الأول الهجري .

وبما أن هذه الصفحات أخذت في اعتبارها قراء محتملين من غير المستشرقين . فإنه يبدو من المناسب أن أقدم الآن تعريفا بهذا الشاعر .

عمرو بن معد يكرب شخصية تاريخية، تحيط بها هالة من الأساطير شيخ قبيلة زبيد، أحد أفخاذ مذحج اليمنية، هاجر إلى المدينة ليشهر إسلامه أمام النبي (ص) حسب ما تشير إليه بعض الروايات، وبعض آخر يقول إنه انتظر إعلان إسلامه حتى وصول خالد بن سعيد، مبعوث النبي لتوحيد الفرق المتباينة في اليمن، في هذه المناسبة، - ولا ينبغي أن ننسى المسألة - قدم عمرو إلى خالد سيفه المعروف بالصمصامة، وبعد موت النبي ارتد عمرو بن معد يكرب مع قبيلته، لكنه ما لبث

أن عاد إلى الإسلام بعد حروب الردة في المدينة ، من هنا ، وتطفو الأسطورة فوق التاريخ ، فتضخم - في كل شيء - صورة عمرو : قامته العملاقة ، بسالة بلا نظير ، - ولكي يكون كل شيء هائلا ، فإنهم بالغوا في طول حياته المفرط ، مما يجعله يلحق بقائمة «المعمرون في الإسلام» وبعد أن يتجاوز القرن يحارب في موقعة القادسية (سنة 15 / 636) بل بقيت منه بقية ليشترك في وقعة صفين (37 / 657) مع علي ، تمتزج الأسطورة بالتاريخ امتزاجا شديدا ، شيء اهتم به الأستاذ : ر . بلاشير محاولا أن يفصل بين الأسطورة والتاريخ ، وهو شيء يبدو غير سهل إذا لم نتوقع عون المصادر .

بقي لنا من تراث عمرو الشعري تسع عشرة قطعة ما بين قصيدة ومقطوعة ، وأبيات مفردة . تعالج كل فنون الشعر ، لكنها - والشاعر محارب - تهتم بكل ما يتصل بالحرب ، بأسلحة قومه ، أو بأسلحته هو ، وبقيت عن بطولته الخارقة أخبار متناثرة عن مآثره تؤلف طائفة من الموضوعات ، أحدها عاد ذا صلة بالمآثر الجرمانية لدى هيلد براند (في القرن التاسع والعاشر) بوصفها الموقعة الفريدة للأب والابن .

جمع ديوان الشاعر عمرو بن معد يكرب العلامة العراقي أبو عمرو الشيباني في منتصف القرن الثالث - التاسع ، وبقي من هذا الديوان 19 قطعة جمعها بلاشير .

من بين الحكايات المنسوبة إليه حكايتان نتحدث عنهما فيما يلي : الحكاية الأولى كما قلت في كتاب "El espéculo de los legos" في نسخته الإسبانية في القرن الخامس عشر التي قام بها Speculum laicorunn والمنسوبة إلى خوان دي هوبدين . العمل عبارة عما يمكن أن يسمى كتاب الجيب أو دليل المرشدين يجمع مئات الحكايات والنوادر المختلفة ذوات الأصول المتباينة ، لتناسب التأملات والشروح لترغيب وترهيب البسطاء ، وتعليمهم مبادئ الدين والأخلاق .

ظلت الترجمة الإسبانية مخطوطة إلى سنوات قليلة خلت ، ودرسها دراسة سطحية جاينجوس ، ومينندث بلايو ، وحققها تحقيقا علميا جيدا دون خوسيه ماريا موهيدانو .

الحكاية التي ندرسها في الفصل التاسع والثمانين تحت عنوان «كيف يجب أن نستمع ونبشر بكلمة الله» والحكاية بالدقة في الحكاية الأخيرة من الفصل المذكور (رقم 560) تقول ما يلي :

يحكى أن فارسا كان لديه سيف ، كان يقطع نصفين درع الفارس ، سمع به الدوق ، فطلب السيف من صاحبه ، فأعطاه له الفارس ، فلم يستطع الدوق أن يقطع به حتى مسمارا ، فاشتد غيظه ، وبعث إلى الفارس ، وقال له : إنه لم ير سيفا بمثل هذه الرداءة ، فأجابه الفارس : سيدي : إنني قد أعطيت لك السيف ، ولم أعط لك الساعد معه .

تتبع هذه الحكاية طائفة من الملاحظات حول الواعظ العالم المفتقد للظرف ، وناشر الكتاب الذي درس بدقة المصادر الممكنة - وهي كثيرة - لمصنفه يقول في هامش يتعلق بهذه الحكاية : ثمة حكاية واقعية تتصل بصلاح الدين مع الملك خوان» ولم يشر الناشر مع ذلك - إلى مصدر هذه الرواية .

كانت لدي فكرة بعد قراءتي منذ سنوات خلت رواية أخرى لهذه الحكاية لدى كاتب إسباني من العصر الذهبي ، لكن جهودي في العثور عليها باءت بالإخفاق ، كذلك حاولت العثور في المصادر العربية على الحكاية المنسوبة إلى صلاح الدين لكني لم أصادف شيئا . وعلى أية حال ، ومع عدم الشك في هذه النسبة ، فإن الرواية قديمة جدا ، وموجودة في الأدب العربي بقرون قبل صلاح الدين ، يتفق كل جامعيها على شخصياتها : الخليفة الثاني العادل عمر بن الخطاب ، وعمرو بن معد يكرب .

أقدم الكتب التي فيها الحكاية كتاب العقد الذي أذاع لصاحبه شهرة حقيقية ، ابن عبد ربه القرطبي ، لنتذكر العام الذي مات فيه (328 / 940) ، ولنتذكر أيضًا أن في العقد حكايات أخر لها نظائر دقيقة في الأدب الإسباني ، كما أشرت إلى ذلك في مقالات سابقة من هذه السلسلة ، والتي أفكر في متابعتها فيما بعد .

في القسم الأول من العقد (أو العقد الفريد كما تعودنا تسميته) في فصل – هو الثاني – عنوانه : كتاب الفريدة في الحروب ، وفيه حكايات مجموعة ذات صلة بالأسلحة المختلفة تحت عنوان جانبي (وصف السلاح) الحكاية التي تهمنا تقول ما يلي :

العتبي قال : بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فرد عليه : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث [إليه] بالساعد الذي يضرب به .

نعترف في التو بأن الموضوع في هذه الحكاية هو الموضوع ذاته في الكتاب الإسباني ، فالدوق في الحكاية العربية هو الخليفة عمر بن الخطاب ، والفارس صاحب السيف هو عمرو بن معد يكرب ، وحكاية El espéculo تصف بجملة بسيطة وحاسمة ذباب السيف (يشق نصفين درع الفارس) ، بينما حكاية العقد لا تقول شيئا عن السيف سوى أن تسميه باسمه الصمصامة ، كما هو الحال في أسماء السيوف : كولادا ، وتيثونا ، تلك السيوف المشهورة في المسيحية والإسلام ، فإذا كان عمرو بن معد يكرب فارسا مشهورا ، فإن سيفه مشهور مثله ، ومعنى الصمصامة معروف في العربية يقابله في الإسبانية El Tajante أي القاطع الحاظي بعراقة هائلة حسب الأعراف ، وحسب تاريخه الأسطوري ، وفي الوسع تقصيه في قرون الإسلام الأولى .

وبالرغم من أن ملكية السيف انتقلت إلى شخصيات عظيمة وغير قليلين من خلفاء بني العباس في بغداد ، فإن الصمصامة (أشهر سيوف العرب) كما يقول الثعالبي ظلت دائما صمصامة عمرو .

في الرسالة الهزلية التي كتبها الشاعر القرطبي الكبير ابن زيدون إلى حبيبته ولادة، ساخرا في إقذاع من غريمه في حبها من الوزير الشاعر ابن عبدوس ، والتي يحاول أن

يقومه فيها ، يستعين الكاتب بعمرو بن معد يكرب وبسيفه في اقتباسات مطروقة وذائعة إلى جانب الفلكلور القديم في الجزيرة العربية ، الذي يستعين به عبر صفحات الرسالة ، يقول في الفقرة ذات الصلة بموضوعنا : والله لو كساك محرق البردين ، وحلتك مارية بالقرطين ، وقلدك عمرو الصمصامة ، وحملك الحارث على النعامة ، ما شككت فيك ، ولا تكلمت بملء فيك ، ولا سترت أباك ، ولا كنت إلا ذاك .

لم أترجم بالدقة هذه الفقرة لأنني لو صنعت ذلك لأتبعتها بهوامش كثيرة تفسيرية، ولذا ترجمتها قريبة من المثل الإسباني «لو لبست القردة حريرا ، لظلت قردة».

وفي الرسالة تكرارات لطائفة في المقابلات ، لتضم - بصورة مبالغ فيها - كل التباهيات الممكنة التي ليس في وسعها أن تخفي كل العيوب المتصورة .

في الشرح الذي صنعه لهذه الفقرة الكاتب المصري الكبير ابن نباته (768 / 1366) في شرحه الجيد للرسالة ، والذي يعين على إيضاح رسالة هجائية ذات إشارات لا يعيها إلا المتعمق في التراث العربي القديم ، في الرسالة بعض الصفحات تقرظ صورة عمرو بن معد يكرب وسيفه المشهور ، وفيها الحكاية التي نتحدث عنها كذلك ، روايتها - دون نسبة - أخصر في سابقتها ، تقول ما يلي :

وحكى أن عمر بن الخطاب قال لعمرو : ابعث لي الصمصامة ، فبعث به إليه ، فلم يره كما بلغه ، فقال له في ذلك ، فقال : إني بعثت إليك الصمصامة ، ولم أبعث إليك باليد التي تضرب .

رواية أخرى أندلسية ، وغير منسوبة كذلك ، عثرت عليها في كتاب «حلية الفرسان» لمؤلفه الغرناطي الكبير ابن هذيل من القرن الرابع عشر ، تصحب هذه الحكاية مقدمة تشرح اهتمام عمرو بالسيف الصمصامة ، باعتباره أمضى سيوف العرب ، يقول نص الحلية ما يلي :

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال يوما : من أجود العرب ؟ قيل له : حاتم الطائي ، قال : فمن شاعرها ؟ قيل له : امرؤ القيس ، قال فأي سيوفها أمضى ، قيل : صمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، قال : فبعث عمر إلى عمرو أن يبعث إليه سيفه المعروف بالصمصامة ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فرد إليه : إني إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به .

لدى كاتب آخر متأخر هو المشرقي بهاء الدين العاملي (953 – 1030 = 1547 – 1621) عثرت على الحكاية في كتابه المشهور ، والذي يحظى بإقبال شديد دائما : كتاب الكشكول ، مشيج من معارف من كل الحقب ، والموضوعات ، شعرا ، ونثرا ، وحكايات أخرى شخصية كثيرة ، تضم أيضًا الحكاية ، وبدءًا كما نرى ، رواها راوٍ آخر ، مع مبالغة طفيفة لما رأيناه آنفا ، مع خاتمة لا نراها في روايات أخرى سابقة ، تقول ما يلي :

قال الصفدي ؛ حكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، سأل عمرو بن معد يكرب أن يريه سيفه المشهور بالصمصامة ، فأحضره عمرو له ، فانتضاه عمر وضرب به ، فما حاك ، فطرحه من يده ، وقال : ما هذا سيفك بشيء ، فقال له عمرو: يا أمير المؤمنين : أنت طلبت مني السيف ، ولم تطلب مني الساعد الذي يضرب به ، فعاتبه، وقيل إنه ضربه .

الكتاب الأحدث الذي عثرت فيه على الحكاية كتاب عجيب ، يناسب الحقبة التي كتب فيها ، في عصور الانحطاط ، للثقافة العربية ، وهو كتاب نزهة الجليس ، ومنية الأديب الأنيس ، للعباس بن عبد الله الموسوي ، الذي أتم تأليفه في عام 1148 = 1736، وبرغم أن المؤلف لم يشر إلى المصدر الذي استقى منه ، ولا حتى إلى الراوي ، فإن

الحكاية مأخوذة من الكشكول الذي أشرنا إليه ، في التو ، وقد أشار الموسوي إلى الكشكول وصاحبه مرات عديدة في مناسبات أخرى من كتابه . التغييرات بينهما طفيفة . كتغيير فعل بفعل مرادف له مثل (سأل في محل طلب) أو صيغة بأخرى مثل (أحاك في محل حاك) وكجملة فيها خطأ في الكشكول تظهر هنا سليمة مثل : (ما هذا بشيء) في محل (ما هذا سيفك بشيء) التي تدابر القاعدة النحوية . شيء يلفت النظر بشدة هو أن المؤلف ناسخا أو ناشرا للنزهة قد نسى اسم السيف ، ويقتصر النص فقط على القول (أن يريه سيفه المشهور) .

حكاية عمرو وسيفه الصمصامة - تحت أي ضوء تقليدي - موجودة في كل المصنفات التي أشرت إليها ، (لكنها موجودة بالطبع في مصنفات أخرى كثيرة لم أرها) تؤكد قبولها لشهرة موضوع الفارس الذي ينبغي أن يقيم بقوته وجسارته لا بقيمة أسلحته ، وقد قيدها الأدب العربي متأخرا بلا ريب ، لكنه لم يدعها دون نسبة إلى بطل أسطوري مبالغة في قيمته ، وبالتأكيد لا توجد في مصادر قديمة تعنى بعمرو بن يكرب ، وليس من اليسير معرفة كيف وصلت إلى Speculum laicorumm ، وإن كنت أعتقد أنها وصلت بطريق الرواية الشفوية ، ربما بطريق المحاربين في الحروب الصليبية ، وربما قيدت في إسبانيا الإسلامية ذاتها ، حيث وجدت قنوات أدبية .

لا أعرف - كما قلت - روايات غربية أخرى للحكاية ، لكني لا أستطيع غض الطرف عن تلك الأبيات التي نظمها دون أنطونيو ماتشادو التي تحدد نموذجه المثالي (الذي كان وفيا له دائما) للشعر ، والتي بلا ريب تغلغلت في مشاعر القراء :

لوددت أن أتخلى عن شعري

كما يتخلى الفارس عن سيفه

المعروف بالساعد الفتى الذي يشهره

لا بالقين الحاذق الذي يثقفه .

الموضوع - بالتأكيد - ذو جذور موغلة في الأدب العربي ؛ قيمة الرجل الذي يعتمد في مجده على شخصه تبدو ثابتة في صراع عنيف مع الاعتزاز بالنسب . لدى شواهد عديدة تصف الفارس العربي (ابن عمله) (الذي يبدأ أصله به) .

للعودة الآن إلى حكايتنا ، وللانتهاء منها أضيف حكاية واقعية أقصر من سابقتها ، وهي في العقد لابن عبد ربه :

وضرب الزبير (بن العوام) يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطعه إلى القربوس ، فقالوا : ما أجود سيفك ؟ فغضب [يريد أن العمل ليده لا لسيفه] .

يضم الجزء الثالث من الأيكة الإسبانية لفرانسسكو أسنسيو حكاية في فصل عنوانه «عن التحديات» تقول ما يلي :

التقى متحاربان ، فانتهز أحدهما غرة من الآخر ، فرآه ذات يوم يقضي حاجته ، فقال له : انته حالا ، فإني لا أريد قتلك في الحالة التي أنت عليها ، فرد عليه صاحبه: عدني عدة رجل شريف ألا تقتلني حتى أنتهي ، فوعده الآخر قائلا له : بل انته حالا، وحين مضى وقت طويل ، ولم ينته قال له : إلى متى ؟ فرد عليه عدوه : إنك قد أخذتني على غرة ، وفي مثل هذه الظروف - وعندي إمساك ، ليس في ذرعي أن أفرج ما بي .

في كتاب ذم الهوى وفي الفصل السادس والأربعين بعنوان : «في ذكر أخبار من قتل من العشاق بسبب العشق» ، يستند كما هو الحال في كل الفصول إلى سلسلة من الرواة يذكر مؤلفه ابن الجوزي حكايات متعددة عن عمرو بن معد يكرب مع

الخليفة عمر بن الخطاب (هنا يلتقي الاثنان مرة أخرى على نحو ما) الذي طلب منه أن يحدثه عن أشجع من رآه، وأجبن من صادفه .

الحكاية الأولى والثانية ذواتا بداية متشاكهة في الواقع ومن اليسير الوقوف على أن إحدى الحكايتين صلحت قاعدة انطلاق للثانية، وأن ختامها مختلف من جهة الشكل أكثر مما هو من جهة المضمون .

هاتان الحكايتان المتناسبتان بوضوح اجتمعتا مؤخرا بسبب الموضوع المشترك داخل الإطار المحافظ لابن الجوزي .

تهمنا فقط الحكاية الثانية، وتقول ما يلي :

وخرجت يوما آخر، حتى انتهيت إلى حي، فإذا بفرس مشدود، ورمح مركوز، وإذا صاحبه في وهدة يقضي حاجة، فقلت له : خذ حذرك فإني قاتلك، قال من أنت، قلت : أنا عمرو بن معد يكرب، قال : يا أبا الثور ما أنصفتني، أنت على ظهر فرسك، وأنا في بئر، فأعطني عهدا ألا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري، فأعطيته عهدا أن لا أقتله حتى يركب فرسه، ويأخذ حذره، فخرج من الموضوع الذي كان فيه، حتى احتبى بسيفه وجلس، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسي، ولا بمقاتلك، فإن نكثت عهدا فأنت أعلم، فتركته ومضيت، فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت .

قبل أن نتقدم خطوة أخرى، لنقل إن هذه الحكاية في إطارها، أو مفردة، موجودة في مصنفات أخرى لكتاب عرب، استخدمها أيضًا ابن الجوزي ذاته خارج إطارها هذا، ففي «كتاب الأذكياء» يضرب مثلا للحيلة، وكذلك يذكرها الوطواط (المتوفى 1182) فى كتابه غرر الخصائص، مفردة ليضرب مثلا للجبن، في صورة مشابهة لرواية ابن الجوزي في ذم الهوى . تبدو أيضًا في نهاية الأرب للنويري

برواية واحدة هي رواية الشعبي ، وهو في ذلك الكتاب الراوية الأول ، وكون الحكاية مذكورة في نهاية الأرب في الفصل المعقود لمن قتل من العشاق بسبب العشق يجعلنا نفكر في أن النويري أخذ الحكاية مباشرة من ابن الجوزي من كتابه ذم الهوى ، الذي أخذ منه كثيرا ، ونقل منه نقولا طويلة ، وذكر ذلك الكتاب مصدرا لنقوله .

الحكاية ذاتها مطولة مع تغييرات متعددة موجودة أيضًا في كتاب إعلام الناس للإتليدي توفى 1688 مبدوءة بقوله : «قيل» دون تحديد لرواية مكتوبة أو شفوية .

بداية حكاية ابن معد يكرب تدفع إلى الذاكرة مشهدا لعله الفريد من نوعه في الأدب الملحمي الإسباني ؛ مناسبة اغتيال الملك شانجه الثاني على يد باليدو دولفوس في ظروف مشابهة لما رأيناه سابقا . فالبدوي المجهول البعيد عن قومه وعن ناسه مثل ملك قشتالة وحده أمام أسوار سموره ، وكلاهما في وضع حرج ، وليس ملحميا إلى حد كبير ، يقعان تحت رحمة من يريد قتلهما ، وإذا كانت الحكاية العربية تنتهي دون إراقة دم ، وبحل مخالف جدا ، فإن السبب في ذلك تماما هو أن خصائص شخصياتها مخالفة لخصائص الشخصيات في الرواية الإسبانية . ففي الأخيرة هوجم الملك الإسباني المخذول دون سابق إنذار من باليدو الخائن ، وفي الحكاية العربية فوجيء البدوي الجبان ، أو على الأقل الفاتر الحماسة بالفارس الشجاع ، الأمين ، الذي لم يمنحه فرصة الدفاع عن نفسه فقط ، بل إنه رعى وعده إلى أقصى حد .

لنعد الآن إلى حكاية فرانسسكو أسنسيو التي تقفو الخط ذاته لحكاية عمرو بن معد يكرب ، فيها شخصيتان اثنتان دون أسماء محددة ، أحدهما مفاجأ في مأزق مذكور قبلا ، لا يميل كذلك إلى الدفاع عن نفسه ، من الثاني الذي أعلنه بقصده قتله ، والأول انتزع منه عهدا ألا يقتله حتى ينتهي ، بدءا من هنا حاشا الملاحظة المهمة في استخدام الحيلة ذاتها لينجو من الموت فإن حكاية الأيكة تميل إلى نهاية

مخالفة تحاول أن تكون مليحة ، إلا أن كلتا الحكايتين تعد في صورة واحدة حلا للمشكلة عبر السؤال البليغ من القاتل الخائب والإجابة مختلفة بالطبع تبعا لمغزى كل حكاية ، ففي الحكاية الإسبانية نهاية مفتوحة ، وقصد احتفالي ، (تبقى فقط في حدود القصد لأن ذكاء المؤلف لا يبلغ أكثر من هذا) . وفي الحكاية العربية تستعين بمعنى الشرف وبإنجاز الوعد .

إنجاز الوعد من رجل نبيل لرجل تحت سلطانه ، يعرف أو يتصور أن موته بيده، وفي وسعه أن يطلب منه أن يتم رغبته الأخيرة - رغبة تبدو غير ذات معنى ، تخفي طيها مراوغة لإنقاذ حياة - أمر من الأمور الشائعة جدا في الأدب العربي . هذه الحكايات من أي عصر كانت ، أو من أي إقليم جغرافي (كثير منها ذو أصل ساسانى) موجودة في أي كتاب من كتب الأدب ، أو في أي كتاب من كتب التاريخ المشرقي ؛ لتدلل على زكانة المحكوم عليه بالموت عدلا أو ظلما ، أو للإعلاء من كرم وجيه يقبل العذر ، وينضوي تحت الباعث أمور أوسع ؛ فإن المهدد الذي ينقذ حياته بكلمة بليغة أو آبدة في إيجاز محكم ، وبها يصل إلى أن يفثأ غيظ رجل يحظى بعطفه ، ويهز مشاعر العظمة فيه ، تقتضي هذه المسألة دراسة في مجلد كامل .

ليس من اليسير التدليل على أن الحكايتين الإسبانيتين اللتين رأيناها آنفا آتيتان - في كلمة فاصلة - من الحكايات الأدبية في الأدب العربي ، والتي رأيناهما من قبل ، وكذلك ليس من اليسير أن ننفي الصلة ، وبخاصة ما يتصل بالحكاية الأولى إذ بينهما صلة واضحة .

أعتقد من وجهة نظري أن كلتيهما شاعتا بالرواية الشفوية في شبه الجزيرة الأندلسية كما شاعتا في شبه جزيرة العرب ، وفي كل العالم الإسلامي ؛ لتعظيم الشاعر القديم نموذج الفروسية ، والأدب الشعبي الإسباني [الخميادا] يجعل منه بطلا في إحدى حكاياته ، في حين كان الأدب العربي في إسبانيا ذكرى عظيمة ، وشاردة .



مــلء العيــن

***

Llenar el ojo

Al-Andalus
Vol : XLI - 1976
Fasc . 2



حكاية إسبانية من أصل عربي

مـــلء العين

أريد أن أتحدث في هذه الصفحات عن عبارة شعبية في قشتالة القديمة هي «ملء العين» أو «ملأ له عينه» بمعنى راق له ، أو سره جدا ، أو أقر له عينه . معنى دقيق لما عرفته منذ الطفولة لسماعي له مرات لا تحصى في بيتي . يدفعني إلى الحـديث عنـه أن الجملة لا يجري استخدامها خارج قشتالة . قمت باستقصاء بـسيط بطريقـة منظمـة بين زملاء وأصدقاء من أقاليم أخرى ، فلم أجـد التعبـير في أمـاكن كثـيرة ، بعـض الزملاء عرفه ، وقليلون آخرون في وسعهم فهمه .

ومع ذلك فالجملة أيضًا لدى الكلاسيكيين الإسـبان (لا أعـرف لهـا سـوابق في العصر الوسيط) وكذلك لدى كتاب في أيامنا هذه يحدد التعبير قـاموس الأكاديميـة الملكية تحت باب «عين» ويشرحه هكذا : ملأ له عينه بـشيء مـا : سره كثـيرا بـشيء يبدو كاملا ، أو بشيء متميز في إطاره .

ويقول قاموس الشواهد في مادة «عين» ما يلي : أترع أو ملأ العين : جملـة يفهـم منها أن شيئا كاملا سره كثيرا ، أو شيئا متميزا في إطاره ، وفي اللاتينية

Maximé arridére . omnino
Placêre . Cerv . 8 . pl 260.

زين البائع حماره ، فمـلأ عـين الأشـتوري ، ولـدى كيبيـدو في انترميـه : تـسأل المالكة: من هذا ؟ فإنه قد ملأ عيني .

ليس في ذرعنا أن نشكو من الشواهد التي تتضمن التحديد ، فالعبارات اللاتينية التي تعبر عن تلك الفكرة في القشتالية لا تدع للشك مجالا ، في استقلال الثانية عن الأولى ، حسبنا فقط أن نراجع المادة «عين» في العمل لكي نقف على الجهد الفعلي الذي قام به المحررون لذكر العبارات اللاتينية المناظرة لكل تعبير في القشتالية ، والتي تخون الصلة الحميمة ، وأكثر من ذلك في التعبير الحرفي، فالجملة «ملء العين» ليس لها أصل لاتيني .

بين أمثلة العبارات المصوغة مع الفعل «أترع» المشروحة في ذخيرة كوباروبياس تبدو جملتنا هكذا : «أترع العين بشيء» مشروحة بما يلي : «سره» وبعد ذلك يستخدم المعنى «أسعده» بمعنى أنه ليس في الوسع إعطاؤه أكثر من ذلك .

إحدى هذه «المواد العامية ، سيئة الإيقاع ، هابطة ، رديئة المعنى ، وقحة ، عارية، دون حواش ، غامضة دون توضيح» والتي يوصي بدرو اسبنوسا بمنعها جملة «لا تترع عيني» على التحديد .

بين الجمل التي جمعها كوباروبياس في خاتمة معجمه الممتاز يبدو أيضًا الفعل القديم أترع ما زال حيا بدلا من ملأ الذي أخلى له مكانه ، يقول ما يلي : أترع العين؛ سره شيء ما لم يترع عينه : أي لم يسره .

كان ثمة تعبير شعبي قديم يوضحه مثل من الأمثلة التي جمعها مورسن بدرو بلاس في القرن السادس عشر هو «عجة رقيقة تقرعيني ، وتخرج روحي» ويبدو كذلك بين أمثلة القومندادور الإغريقي «عجة رقيقة تقر عيني ، وتخرج روحي» مع هذا الشرح : لأنها تؤكل بشهية ، وتبدد الدراهم .

لا أعرف شواهد أخرى حتى القرن العشرين ، يستخدم ميجيل دليبيس – ومعروف أنه من بلد الوليد ، وكاتب قشتالي – في كتابه «حكايات قديمة من قشتالة القديمة ، مع تحريف المثل ، وهو كما يبدو مثل في السياق التالي :

كانت روسا ماري فتاة نظيفة ، مجتهدة ، كانت تملأ عين عمتها مارثيلينا ، كانت العمة مارثيلينا تقول لي : عليك بالبحث عن امرأة للمنزل ، وبما أن أحدا لا يلتفت ، كانت تضيف : انظر هنالك تر روسا ماري ، في اليوم الذي تكون فيه شابا عليك بالزواج بها .

يذكر مانويل أرثي في «وصية في الجبل» الجملة في موقف مشابه إلى حد لموقف دليبيس الذي رأيناه الآن :

للأسف أننا نموت ، ونترك المال لزوجة تتزوج بعد شهرين بمن يملأ عينها .

لقد رحلت الجملة إلى أمريكا ، ففي تلك الرواية الرائعة «الناس اللي تحت» للمكسيكي ماريانو أثويلا ، الشاهد على الثورة المكسيكية ، بوصفه طبيبا بجوار بانشوبيا ، نجد الجملة تبدو في حوار حي ، وتثير الإعجاب في سياقها :

انظر ، لماذا تقيدني امرأة

إذا هي لم تبدأ ، فلن أتحمس – يتنهد –

هنالك كاميلا ، تلك الفتاة القروية ، البنت الدميمة

غير أنها تبدو ، وكأنها تملأ عيني .

الكناية «ملء العين» بمعناها الدقيق الذي تعنيه في الإسبانية والذي تحدده بوضوح المعاجم والعبارات التي رأيناها موجودة في اللغة العربية في العصر الوسيط والحديث : يشرح لاين ملأ العين : «سره وأرضاه» .

مستشهدا ببيت من الشعر في تاج العروس . والتركيب الشائع أكثر هو استخدام المفعول به المتصل بضمير الملكية «عينه» كما تقتضي أيضًا طبيعة اللغة الإنجليزية his eye . ويستشهد قاموس كاز يمسك بصيغة ملأ عينه . أي بلغ به غاية الرضا .

لكن لندع المعاجم جانبا إذ هي مقابر للكلمات ، ولنر النصوص .

في كتاب أندلسي شديد الأهمية – يبدو أنه لم يثر اهتمام أحد – هو كتاب الذخائر والأعلاق لابن سلام الباهلي (توفى 1149) يذكر مؤلفه حكاية تتعلق بالخليفة العباسي المعتصم بالله وقد حُكم بالإعدام – في حضرته – على رجل واجه الموت بشجاعة : وكان رجلا وسيما يملأ العين .

ويقول الكاتب والشاعر أبو البقاء الرندي المشهور في تاريخ الأدب الإسباني باسم (Abulbeca de Ronda : 1204 – 1286) في رسالة يرد فيها على صديقه : «بيضاء كاللجين ، ملء القلب والعين» .

ويحكي لنا المقري في نفح الطيب كيف استطاع علي بن سعيد أن يحظى بعطف الأمير الحفصي أبي عبد الله المستنصر – الذي حكم بالموت على ابن الأبار – وكان قد سخط على الرئيس ابن الحسين . وقبض على دياره وأمواله وصيره كالمحبوس ، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به في مصلحة للدولة ، فأحضره وسأله فأخبره بأن أباه صنع دارا عظيمة تحت الأرض ، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة لسلطانه .... إلى أن يقول : ففرح السلطان وبادر إلى تلك الدار فرأى ما ملأ عينه وسر قلبه وخرج الرئيس ابن الحسين ، والخيل تجلب أمامه وبدر الأموال بين يديه .

ويجمع دوزي في Lettre à . M . Fleicher ، المذكور آنفا جملة ابن الأثير (وصله بما ملأ عينه) لم أستطع التثبت من هذه الجملة ، ويبدو أنها تعني سره . وفي الملحق

ذكرها من جديد ، وترجم العبارة بكلمـة Plaire ، ويـذكر فيـه هكـذا ، وإن كـان لم يترجم نصا آخر للعمراني : «كان كاتبا بليغا ، فصيحا ، كريما ، يمـلأ العـين ، العـين والقلب» . مرة أخرى يجمع بين العين والقلب .

في رسالة مهمة ترجمتها ، وأنتظر نشرها قريبا ، يقول الكاتب محمـد بـن عبـد الله ابن داود الغافقي (توفى 1287) يحكي عن زيارته لأشبيلية : «فـشاهدت مـن المبـاني العتيقة والمنارة الأنيقة ما يملأ أعين النظار» .

وفي ترجمة شخصية مشهورة في غرناطة النصرية ، هي شخصية الـشاعر الـوزير محمد بن الحكيم اللخمي ، وترجمته في الإحاطة يقـول ابـن الخطيـب قبـل أن يـورد قصيدته التي أنشدها في بلده رندة بحضرة السلطان : «وهو إذاك فتـى يمـلأ العـين أبهة ، ويستميل القلوب لباقة» .

ويكرر ابن الخطيب نفسه حين تـرجم للـسلطان الغرنـاطي نـصر الملقـب بـأبي الجيوش في الإحاطة ، فقرة من كتاب آخر له هو «طرفة العصر في أخبار الملـوك مـن بني نصر» يقدمه هكذا : كان فتى يملأ العيون حسنا ، وتمام صورة .

ما تزال جملة «ملأ العين» حية في الأدب العربي الحديث ، فمعجم إليـاس يـذكر ملأ عينه بمعنى أرضاه ، وسره دون أن يصف الجملة بأنها اصطلاح حديث أو تعبير مصري ، وقد أكد لي بعض الأساتذة والطـلاب مـن فلـسطين وسـوريا ومـصر أن العبارة تستعمل في الكلام العادي .

لم يتهيأ لي للأسف أمثلة من الأدب العربي المعاصر سوى مثلـين عثـرت علـيهما أثناء قراءتي لكتاب الكاتب المصري الكبير الذي رحل مؤخرا عباس محمود العقاد ، أولهما في مستهل الكتاب : «والحق أنه لا فضاء حيث يكـون النـور ، وكيـف يكـون

فضاء ما يملأ العينين ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء؟» ويقول فيما بعد ؟ «ماذا تستبيح ، وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه النافذة؟ أتستطيع أن تملأ عينيك من شيء غيرك كما قال الأديب الحجازي؟» .

يذكر الكاتب في مثله الأخير – في دقة – مثلا قديما ذكره الميداني ونشره فريتاج في «الأمثال العربية» : «ملأ عينيك شيءُ غيرك» .

ما تزال حية عبارة «ملأ العين» (إذا كانت غير مختلفة) لأنها مشتقة – فيما أعتقد – من حديث أو أثر نبوي ، حدث له تحريف لتحوله إلى مثل شعبي يحتفظ بعلاقة وثقى بمثل الميداني الذي رأيناه آنفا ، إحدى صور هذه التعبيرات التي استطعنا أن نراها أقدم ، نشرها وشرحها كوركارد : ما يملأ عين [بن] آدم إلا التراب .

يقصد أن المرء يظل طموحا وطامعا إلى أن يودع التراب ، والتعبير المألوف (عينه مليان) = عينه مليئة ، أو ينال كل دواعي الشهوة والرغبة ، «وهذا لا يملأ عينه» أو يرضيه ، هذا المعنى المجازي يتضمنه المثل السائر الذي يجيء بمعنى «يملأ عينه» ويعني هنا تراب القبر ، .. وحديث للنبي ﷺ مشابه لهذا المثل في المعنى يقول ما يلي:

لا يملأ جوف [١] بن آدم إلا التراب .

يشير المثل الكلاسيكي لدى الميداني إلى الخطيئة العظمى للجسد ، والمثل الشعبي إلى الطمع وعدم الرضا القابع في بني آدم ، واللذين لا ينتهيان إلا بالموت ، بمعنى حين «يملأ العين» تراب القبر ، بالمعنى الحقيقي والمجازي ، نرى المثل مشروحا من بوركارد في المجموعة القيمة التي ألفها العلامة أحمد تيمور ، ويذكر أيضًا مثلا آخر يشابه القول المأثور :

مــلء العين

جفن العين جراب ما يملاه إلا التراب

المثل في الصورة ذاتها - مع تغييرات لهجية طفيفة - مجـرد في مجموعـات مختلفـة من الأمثال (على الأقل في العراق ولبنان والكويت والجزائر والمغرب) .

حديث محمد ﷺ ، الذي ذكره بوركارد في شرحه للمثل وبه تشابه مـع المثـل في الواقع - عثرت عليه - مع تغييرات لها دلالة - نراها فيما بعد - في تطابقات فنسنك حتى ثماني عشرة مرة ، يذكره منسوبا لابن حنبل (من بـين كبـار رجـال الحـديث) ، ومع ذلك أعتقد أن دلالة المثل وربما أصل التعبير (ملء العين) ينبغي البحث عنه في حديث آخر ، جمعه أيضًا فنسنك ، مذكور فقط في صحيح مسلم ، وهـو : فـما خلـق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلـك القبـضة . كـان عـسيرا عـليّ أن أجـد هـذا الحديث في باب الجهاد أو الحرب المقدسة في «الصحيح» وهي الرواية الوحيدة التي لم تتهيأ للطبعة التي استند عليها فنسنك .

إطار حديثنا الذي رواه الابـن عـن ابـن الأكـوع الـشاهد الرئيـسي للحـادث ، والحلقة الأولى في سلسلة الرواة ، مؤسس على رواية غزوة حنين التي أحـرز النـصر فيها محمد ضد المشركين في 8 يناير سنة 630 ، بعد قليل من فتحه مكـة . يحكـي ابـن الأكوع الذي قام بنشاط فعال في الغـزوة ، حيـث عـاد القهقـري بـين المـسلمين في تشعث بعد هجمة غير متوقعة من العدو بعد نصره المتوقع .

يحكي الراوي : غزونا مع رسول الله ﷺ حنينا فلما واجهنا العدو تقـدمت فـأعلو ثنية فاستقبلني رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عني ، فما دريت ما صنع ، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابة رسـول الله ﷺ فولى أصحاب رسول الله ﷺ وأرجع منهزما وعـلى بردتـان متـزرا بإحـداهما مرتـديا بالأخرى ، قال ، فاستطلق إزاري فجمعتهما جميعا ومررت على النبي ﷺ وأنـا منهـزم

وهو على بغلته الشهباء فقال : «لقد رأى ابن الأكوع فزعا» فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض واستقبل به وجوههم وقال «شاهت الوجوه» فلما خلى الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين ، فهزمهم الله ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين .

لم أعثر على هذا الحديث بين الروايات التي جمعها الرواة المسلمون عن مشاركين آخرين في المعركة ، كلهم يتفقون في أن النبي ترجل عن بغلته (تذكر الرواية أنها رمادية ، بيضاء ، وبعضها يذكر اسمها دلدل) وقبض قبضة من التراب أو بعض الحصى (بعض الروايات يقول ثلاث مرات) أو أعطيت له ، ورمى بها في وجه (أو في أعين) الأعداء ، صائحا ، (أو صاح آخر) أو دعا عليهم ، مما كان له الأثر في هرب المشركين أو هزيمتهم .

هذا الفعل من محمد ، إلقاء التراب على العدو - عمل ذو دلالة تصويرية صنعه أيضًا في غزوة بدر - يذكره القرآن في سورة الأنفال حين قال : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ .

المصنفات التي أشارت إلى هذه المسألة ، - سواء كتب المؤرخين أو كتب شيوخ المفسرين - التي استشرتها (دون غرض الاستقصاء بالطبع - أو التي لم تجمع كلمات محمد حين رمى التراب (أو الحصى) في وجوه الأعداء ، أو كانت مختلفة في جوهرها - لم تحتو - في أي حالة - على تعبير «ملء العين» : مثلا «رمى في أعينهم جميعا الحصى» أو «لم يبق واحد منهم إلا اشتكى من الرماد في عينه» ، أو «لم يبق رجل إلا ودخل التراب في عينه» أو «لم تبق عين إلا ودخلها التراب» أو «رمى في وجوههم التراب».

فسر المفسرون الآية القرآنية تفسيرات كثيرة متعددة ، ويتفقون عامة في تلك النقطة : فالله هو الذي صنع المعجزة في هزيمة المشركين ، ولا نضع أنفسنا في

مشكلات ، ولنعد إلى صحيح مسلم أحد كتب الصحاح الكبيرة التي رتبت الأحاديث حسب موضوعاتها ، ويبدو أنه الوحيد الذي جمع هذه العبارة : «فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا» . إن الاستغناء عن الكلمات التي تحتها خط معناه حذف العبارة من سياقها التاريخي ، ومعنى هذا استطاعة الوصول بسهولة إلى عبارة مأثورة يقدمها لنا المثل الشعبي ، الذي يعبر عنه هكذا : لا ، أو ما يملأ عين الإنسان (ابن آدم) إلا التراب .

لكن هذا المثل ليس مثلا على وجه الدقة بل هو «حديث» ذكره بوركارد وجمعه فنسنك في صيغة «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» الذي أشرنا إليه آنفا . يذكر فنسنك خمسة وعشرين موضعا يذكر فيها هذا الحديث (فقط في الصحاح الكبرى) ويذكر التعبيرات يسد بدلا من يملأ ، وفم أو عين بدلا من جوف . ولم أتحمس لدراسة هذه التغييرات في تلك الصيغ المتعددة ، لذا أنتقل إلى نقطة أخرى .

في قصيدة مدح نظمها ابن زيدون ، وجهها إلى أبي الحزم بن جهور ، يتحدث الشاعر إلى الرجل الذي تولى مقاليد الأمور في قرطبة بعد سقوط الخلافة ، يصفه جالسا ، جميلا ، مبتسما ، مليئا بالرحمة والجلال ، فيقول له :

ملأ النواظر صامتا ، ولربما ملأ المسامع سائلا ومجيبا

بيت آخر لابن شرف - ذكره ابن بسام - معلقا على القصيدة التي فرغنا توًّا من ذكر بيت منها - من قصيدة يمدح بها أمير القيروان . وفي البيت تعبير قوي عن الفكرة :

سل عنه ، وانطق به ، وانظر إليه نجد ملء المسامع والأفواه والمقل

لم يستخدم أي من البيتين كلمة «عين» . ذكر ابن زيدون «نواظر» جمع «ناظرة» واستخدم ابن شرف مرادفا آخر «مقل» جمع مقلة ، ربما هربا من كلمة شائعة في الحديث العادي ، تبدو غير شعرية .

وفي إيجاز ، فإن التعبير الإسباني «ملأ عينه» يناظر تماما في العربية ما يبدو أنه ترجمة حرفية «ملأ العين» و«ملأ عينه» ، تلك الأخيرة تستعمل أحيانا - كما رأينا - مؤيدة بتعبير مناظر : سر قلبه ، ربح قلبه ، أو تصلح مفعولا مزدوجا : ملأ العين والقلب ، والعين والنفس ، ولنحلل بعض الشيء استنادا إلى العبارات العربية التي رأيناها : «ملأ العين» بصفة خاصة الجمال الظاهري ، «ملأ السمع» جمال الصوت ، أو عبارة طلية .

إنه حديث نبوي ، أصل محتمل لآخر ، قد حظى بانتشار أوسع ، قد غدا في النهاية طائفة من الأمثال التي رأينا منها نماذج قليلة ، ويبدو أن الجملة العربية حظيت بحيوية أكبر مما حظيت به في الإسبانية ، وصلحت تعبيرا عن أفكار تستخدم المعنى الحقيقى والمجازي .

البناء البسيط «ملأ العين» يعني تماما "llenar el ojo" راق له ، سره شيء ، أو أحيانا كثيرة سره إنسان «يروق للعين» في هذا المعنى .

أليس في الوسع أن نفكر في أن «ملأ العين» - مع الأخذ في الاعتبار أنه ليس له مناظر في اللغات الرومانية - هو في بساطة جملة طبق الأصل من العربية ؟



المقـــص الـــرديء

Tijeras malas

Revista de dialectologia

y tradiciones populares

Tomo : XXXVI - 1981



حكاية عربية في الأدب الإسباني
المقص الرديء

ثمة ثلاث مجموعات من أمثال قشتالية ، أولاها مجموعة بدرو باييس ، ومجموعة هرنان نونييث ، ومجموعة جونثالو كورياس تحوي المثل التالي : «المقص الرديء جعل فم أبي معوجا» . ويضيف كورياس من عنده صيغة أخرى للمثل تغير السياق، وتنسب للآلة إيذاء نفسيا قاسيا : «المقص الرديء جعل زوجي أعور» . وكما نرى في التو ، فإنه يفتقد المعنى ، حتى المعنى الثاني أو الثالث الناجم من الشعر الذي يحاول في كثير من الأحيان تسويغ مثل لم يوضع موضعه . ولم يشرح المثل باييس ولا هرنان نونييث ، ولا حتى كورياس في واحدة من الطبعتين المستقلتين بسبب الترتيب الهجائي ، وعبر ما يزيد عن مئتي صفحة .

وعلى العكس ، فإن المعنى محدد تماما في «ذخيرة» سباستيان دي كوباروبياس الذي قيد المثل في مادة المقص ، وشرحه بما يلي :

المثل : «المقص الرديء جعل فم أبي معوجا» . إنها عادة شائعة جدا عندما لا يقطع المقص جيدا ، فإن القاص يحاول المعاونة - عبثا - باعوجاج الفم ، كالذي يحاول أن يقذف الكرة بيده ، فيميل بجسده نحو تلك الناحية حيث يريد لها أن تعود» .

أما قاموس الشواهد في مادة «الفم المعوج» فيقول : «إنه الشخص المعوج الفم ، والمادة مركبة من المنعوت فم والنعت معوج ، ويستدل على ذلك ببيتين من شعر

كيبيدو ، وكذلك يأتي في السياق بمثلنا نحن : «المقص الرديء جعل فم أبي معوجا» مثل لمن يقص بمقص رديء ، وبما أنه يبذل جهدا فإنه يعوج فمه ، وتدل مع طول الممارسة على عادة رديئة ، وتظل طبيعة سادكة بالشخص .

وعلى هامش المثل عثرت على إشارات لاعوجاج الفم ، كعمل لا جدوى منه لمساعدة المقص (وكبعض من يضغط بشفتيه على أسلة لسانه أثناء عمل شاق أو دقيق) في بعض المصادر الإسبانية . النصوص الثلاثة التي عثرت عليها مصادفة في قراءاتي تسخر من هذا السلوك .

لنتذكر الموشحات التي أرسلها القائد رومان إلى الشاعر الشهير ، والمرتد أنطون دي مونتورو الخائط القرطبي ، وهي مليئة بالطعن الناقد ، وذات قيمة عالية ، كما هو شأنها في ديوان الأهاجي ، يرجوه القائد بعد تجريحه بقسوة – وبكل ما هو مقدس – أن يهجر الشعر ويعود إلى صناعته خائطا (Alfayate) ، ويردد هذا الغرض الفلكلوري الذي هو نواة مثلنا فيقول :

إنك تفصّل سعيدا

عشرين سلة من بقايا الثياب

فلتفصل وأنت خبير

بإبرة جيدة ، وقمع خياطة جيد

فلتفصل إزارا ناعما

وجبة Jubón ، وريشا

فصل وأنت تعوج فمك

حين تقطع بالمقص .

وفي رواية «الكلب والحمى» لبدرو دي اسبينوسا التي يطلق عليها مؤلفها اسم «رواية غريبة» يبرز بين سلسلة الشخصيات الرذلة - أولئك الموسومون بتلك العادة التقليدية للخياطين . فشورمبو «كلب ذو خصال ، فيلسوف كلبي ، ربيب قصور ، في تأمله الحكيم يقول هكذا :

ليعتقني الله من أولئك الناس الطيبين

بسبب الخصلة السيئة ، يشربون مثل الضفادع

ويتحدثون مثلها ، يقطعون بسيوفهم البيضاء

غير الحادة أصابعهم ، ولا يقطعون اللفت

ألسنتهم أطول من أيديهم ، أفواه معوجة بسبب

قطعهم بمقصات مثلومة ، خنازير ، يجأرون مدمدمين

بالشكوى حتى بعد مللهم .

في كتاب «الضرائب العامة والعاجلة» الذي أملاه دون فرانثيسكو دي كيبيدو إي فيجاس ، والذي احتذاه قصدا صديقه اسبينوسا طريقة وأسلوبا في مصنفه الصغير الذي أشرت إليه من قبل بقليل ، يحدث ذلك أيضًا - دون إشارة واضحة إلى الخائطين ذوي المهنة - لذوي العاهات من بين أشخاص آخرين من أصحاب هذه المهنة ، يقول كيبيدو :

«اللاعبون بالصوالجة إذا حدث لهم أن يعوجوا الفم ، فإنهم يعوجون معه الجسد ، ظانين أنهم كما يصنعون هكذا يصنع الفم ، نعترف لهم بأنهم قد أصبحوا رهبانا ، كذلك نلفت النظر إلى أولئك الذين يعوجون أفواههم حين يهدمون شيئا ما، وكذلك الذين يحملون أقنعة المهرجين أو شيئا من هذا القبيل فإنهم يصنعون من

داخلها حركات واقعية أو حقيقية ، يبدو لهم كأنهم يرون من خارجها وليس الأمر كذلك . وكذلك الذين يفتعلون حين يقصون بمقص رديء أو بآلة أخرى فإنهم يعوجون الفم أو يخرجون لسانهم معوجين الفم كذلك .

كل هذه «العادات الشائعة جدا» كما يصفها كوباروبياس والمبتدعة والمشروحة بقلم كيبيدو في الفقرة السالفة ، اعوجاج الفم حين القطع بمقص رديء (أو حسن على حد سواء) هو الذي - فيما يبدو - لفت الانتباه الشعبي أكثر ؛ ربما لأن هذا العمل قسط شائع في كل الصفات الواضحة ، وبالطبع لدى بعض الناس ، وهم على كل حال كثيرون لشد الانتباه إلى هذا العمل المضحك وغير الضروري : اعوجاج الفم لدى استخدام المقص ، المشهد الذي يدوم داوم القص نشأ عنه بلا ريب باعث على السرور والسخرية ، وفيما بعد تولدت عنه أسطورة أن القص الكثير وبخاصة بمقص رديء أو مثلوم ينجم عنه في النهاية اعوجاج الفم وتشويهه دون إمكان البرء ، ويعتبر الخياطون (وإن اقتصر الأمر على ذوي المقصات الرديئة منهم) الفئة الرئيسية المضارة بهذا الداء ، إنه تشوه خاص بالمهنة . ومن هنا ولد المثل بصورة مختلفة كما هي موجودة في صورتها المتغيرة لدى كورياس .

لم يستحق أي نص من النصوص المذكورة من النقطة التي نعالجها أي تعليق من القائمين على نشرها ، لا أدري هل اعتبروها شيئا شائعا جدا ، أو لأنهم يقارنون هذه النصوص ونصوصا أخرى فيما بينها وبين هذا المثل .

ومهما يكن من أمر فإنني أعتقد أن إشارة ما ضرورية على هامش النص ، إذ إن الباحث الفلكلوري - لا أدري بدقة هل هو إسباني لا أظن - كان حيا جدا في إسبانيا الإسلامية ، كان موجودا إلى درجة أنه استخدم أساسا ذخيرة شعبية لحكاية فلكلورية جمعها الفقيه الأديب الغرناطي - في غرناطة النصرية - ابن عاصم المتوفى سنة 1426 م .

يقول النص :

ومر رجل ومعه ابن له صغير برجل يقطع بمقص وهو يعوج فمه ، فقال له ابنه: يا أبت هذا مقصنا الذي تلف لنا ، فقال أبوه : ومن أين علمت ذلك ؟ قال : لأنه يعوج فمه كما كنت أنت تفعل .

هذا الغلام هو ابن عم غلام آخر (ذكي مثله في إطار سذاجته) بطل نادرة فلكلورية عربية أخرى ولجت الأدب مبكرة ، ووجدت أيضًا مكانا في كتاب ابن عاصم ، وفي كتاب لاثاريّو دي تورمي .

لنعد مرة أخرى إلى موضوعنا :

مع قراءتي المتعددة في كتب عربية عبر سنوات طوال ، لا أذكر أنني قرأت الحكاية في كتاب آخر ، ولا حتى في كتاب آخر خارج نطاق الأدب العربي ، وعلى كل حال لم يكن في إمكاني مراجعتها في : "Motif – Index de Stith Thompson"

ربما ينبغي أن نفكر في أن الحكاية ظلت محفوظة ومنسية في كتاب الأديب الغرناطي ، كما ظل الأثر في باب الأمثال ؛ لأنني أعتقد أن المثل لم يزل حيا إلى أن أخذه رودريجيث مارين ، ومنذ ما يزيد على نصف قرن بقليل كانت صورته هكذا «المقص الرديء جعل فم الخائط معوجا» .



كتب للمترجم

*** الترجمة** :

- خاتمان من أجل سيدة ـ جائزة الدولة في الترجمة .
- خمس مسرحيات أندلسية .
- مقامات ورسائل أندلسية .
- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية [حائز جائزة ابن تركي لترجمة الشعر] .
- فصول من الأندلس في الأدب والنقد والتاريخ .
- تأثيرات عربية في حكايات إسبانية .
- قلبان وظل .
- حقول عدن الخضراء .

*** الشعر** :

- الخوف من المطر .
- هدير الصمت .
- لزوميات وقصائد أخرى .
- مقام المنسرح .
- أغاني العاشق الأندلسي . (حاز جائزة مؤسسة يماني الثقافية) .
- زهرة النار . (حاز جائزة مؤسسة البابطين) .

كتب المترجم

* **التحقيق** :

- حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي .

* **الدراسات** :

- المازني شاعرا .
- أدب ونقد .
- دراسات نقدية .
- شعراء ما بعد الديوان جـ ١ .
- شعراء ما بعد الديوان جـ ٢ .
- شعراء ما بعد الديوان جـ ٤ .
- في الشعر العماني المعاصر .
- القونت لوقانور – دراسة وترجمة .
- حديث الشعر .
- كتابات في النقد .
- في الحديث النبوي – رؤية أدبية .